الفصل الرابع
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب فى جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنسانى الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات فى كل عصر على حدة، بل أيضا فى كل إقليم. ودائما الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هانئ بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبته أحسَّ بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا فى عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعنى بتصوير متاعه المادى فيه تصويرا مزريا وفرعا ثانيا عذريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبته لمعانى الحب والوجد فى ذاتها، لا لشىء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثر الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح نارا فى صدورهم لا يمكن إطفاؤها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيقهم من العذاب واجدين فيها متاعا لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العذرى والحب المادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى ولأولهما دائما الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون فى الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء فى ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسالمة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضى فى جَوارٍ غاضبْنه وهَجَرْنه [1]:

---

(١) انظر فى مقطوعة البيتين الحلة السيراء ١/٥٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٢/٧٩.

قُضْبٌ من البانِ ماسَتْ فوق كُثْبانِ أعرضْن عنى وقد أَزْمعْنَ هجرانى
مَلَكْنَنِى مِلْكَ من ذلَّت عزائمهُ للحب ذُلَّ أسيرٍ موثَقٍ عانِ

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجوارى، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهنَّ متذللا. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حبا، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش فى الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله[١]:

إذا ما بدتْ لىَ شمسُ النها رِ طالعةً ذكَّرتْنى طَروبا
عَدانىَ عنكِ مَزارُ العِدَا وقَوْدى إليهم لُهامًا مهيبا[٢]
سموتُ إلى الشرك فى جَحْفَلٍ ملأتُ الحُزُونَ به والسُّهُوبا

وقد استهل القصيدة بستة أبيات فيي الغزل بطروب ثم خلص إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلا يَدَّرع غبار القتال حتى استحالتْ نضرة وجهه شحوبا ابتغاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حِمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموى وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروبا فى سبيل نصرة الدين الحنيف واستئصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على لسان الحكم وابنه عبد الرحمن. ولمؤمن بن سعيد شاعر عبد الرحمن [٣]:

حُرِمْتُكِ ما عدا نظرا مُضِرًّا بقلبٍ بين أضلاعى مقيمِ
فعينى منك فى جَنَّات عَدْنٍ مخلَّدة وقلبى فى الجحيم

والبيتان تلاعبًا بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منهما غزلا يعبر عن عاطفة حارة، وللقلفاط الهجَّاء غزلٌ يُرْوَى فى ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله[٤]:

يا غزالاً عنَّ لى فابْـ ـتَزَّ قَلْبى ثم ولَّى
أنتَ منى بفؤادى يا مُنَى نفسىَ أولى

وهما بيتان رقيقان ولغتهما عذبة. ولابن عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده

---

(١) راجع فى قصيدة هذه الأبيات الحلة السيراء ١١٤/١. والمغرب ٤٧/١ والبيان المغرب ٨٥/٢.
(٢) لهاما: جيشا كثيفا.
(٣) المغرب ١٣٣/١.
(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٣٠٢ ومرت فى الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال فى التصوير ورشاقة فى التعبير كقوله [١]:

يـالؤلؤا يَسْبِى العقـولَ أنيقـا ... ورَشًا بتعـذيب القلوب رفيقـا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ ... دُرًّا يعـودُ من الحيَـاء عَقيقـا
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وَجْهِهِ ... أبصرتَ وجهك فى سَنَاه غَرِيقا
يـامَنْ تقطَّعَ خَصْـرُهُ من رِقَّـةٍ ... ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

والصور متناسقة تناسقا بديعا فاللؤلؤ الأبيض تتضرج الخدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقا أو ياقوتا، والبصر يغرق فى محاسن الوجه وسناها أو ضوئها المتوهج جمالا وفتنة، والخصر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر [٢]:

عجبتُ- وقد ودَّعتُها- كيف لم أَمُتْ ... وكيف انثنتْ بعد الوَداع يدى معى
فيامُقْلتى العَبْرَى عليها اسْكُبِى دَمًا ... ويـاكَبِدى الحَـرَّى عليهـا تقَـطَّعى

والبيتان ينمان عن شعور مرهف رقيق، ولغتهما سلسة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادى وسنفرد له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجيانى وقد زَجَّ به المستنصر فى سجن ببلدته جَيَّان لما رُفع له من أنه هجاه، فسجنه ومات فى سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الحدائق الذى تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذرى فى الأندلس، كما يتضح فى قوله [٣]:

وطـائعةِ الـوِصالِ عَفَفْتُ عنهـا ... ومـا الشيـطانُ فيهـا بـالمـطاع
بدتْ فى الليل سَافِرَةً فبـاتتْ ... دَياجى الليل سَافرةَ القِناعِ [٣]
ومـا من لحـظةٍ إلا وفيهـا ... إلى فِتَنِ الـقلوب بهـا دَواعِ
فملَّكْتُ النُّهَى جَمحـاتِ شـوقى ... لأجرى فى العفافِ على طباعى
وبتُّ بهـا مبيتَ السَّقْبِ يَـظْما ... فيمنعه الكِعامُ من الـرِّضاعِ [٤]
كـذاك الروضُ مـا فيه لمثـلى ... سـوى نَـظَرٍ وشَمٍّ من مَتـاعِ

---

(١) النفح ٥٦٤/٣.
(٢) مغرب ١٨٧/١.
(٣) انظر فى ترجمة أحمد بن فرج الجيانى وشعره الحميدى ص٩٧ والقلائد ص٧٩ والبغية ص ١٤٠ والمغرب ٥٦/٢ والمطرب ص٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.
(٤) السقب: ولد الناقة. الكعام: ما يجعل على فمه لمنعه من الرضاع.

ولستُ من السَّـوائم مُهْمَـلاتٍ فأتخذَ الرِّياضَ من المـراعى[١]

وابن فرج الجبانى يصف لنا جمال صاحبته الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحبه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفى كل لحظة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصما بالعفاف المفطور عليه، يردُّ بعنفٍ جمحات عواطفه وغرائزه، ساميا بنفسه عن عالم الحيوانية والغَريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظمأ والكعام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبته النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسلة فى المراعى ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك فى أن هذا التسامى اقترن بالحب والغزل فى الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجيانى عبرَّ عنه فى لوحة بديعة، وكأنما رسمه فيها وجسَّده تجسيدا قويا. ولجعفر المصحفى وزير الحكم المستنصر[٢]:

كلَّمتْنى فـقلتُ: دُرٌّ سَـقِيطٌ فتـأمَّلتُ عِقْدَهـا هل تَنـاثَرْ
فـازْدهـاهـا تبسّمٌ فـأرتْنِى عِقْـدَ دُرٍّ من التبسمُّ آخَرْ

واستعارة الدر للكلام وللثغر قديمة، غير أن المصحفى عرف كيف يحورها ويعرضها عرضا بديعا، حتى ظن من حسن كلام صاحبته أنها تلفظ دررا حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحباته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وتموج الأمور وتضطرب اضطرابا شديدا، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: «ملك الثلاث الآنسات عنانى» وفيها يقول المستعين[٣]:

عجبًا يهابُ اللَّيْثُ حدَّ سِنانِى وأهـابُ لَحْظَ فَـوَاتـرِ الأجْفـانِ
وتملَّكتْ نفسى ثـلاثٌ كالـدُّمَى زُهْـرُ الوجـوه نواعمُ الأبـدانِ
فأبحَنْ من قلبى الحمىَ وتركْنَنِى فى عِزِّ مُلْكى كالأسِـيرِ العانى
لا تَعْـذِلُوا مَلِكـا تذلَّـل للهَوَى ذلُّ الهـوى عِـزٌّ وملكٌ ثـانِ

---

(١) السوائم: الحيوانات المخلاّة فى المراعى.
(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٦٩ وانظر فى جعفر وشعره المطمح ص ٤ والحلة السيراء ١/٢٥٧ - ٢٦٧ والذخيرة ٤/٥٨ وما بعدها.
(٣) الذخيرة ١/٤٧.

والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنأ المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفتك به بنو حمود واستولوا على الخلافة، وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فتك به ابن عمه المستكفي. وكان المستظهر شاعرا وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله [١]:

غزالٌ براه الله من نورِ عَرْشِهِ ... لتقطيع أنفاسى وليس من الإنْسِ[٢]
وهبتُ له مُلْكى وروحى ومُهْجَتِى ... ونَفْسِى ولا شىءٌ أعزَّ من النَّفْسِ

وكثيرون من أبناء البيت الأموى تترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعارًا مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الخزرجى الأنصارى الذى أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله[٣]:

إذا رُمْتُ قَطْفَ الوَرْدِ ساورَنى الصُّدْغُ ... بعقربِ سِحْرٍ فى فؤادى له لَدْغُ[٤]
غزالٌ بجسمى فَتْرَةٌ من جُفُونِهِ ... وفى أدْمعى من لون وَجْنَته صِبْغُ
زيارتُه أخْفَى خفاءً من السُّهَا ... ودون فراغى من محبته الفَرْغُ[٥]

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من خدود صاحبته ساوره أو وثب عليه ومنعه عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته فى فؤاده. وزعم أنها أعْدت دموعه بلون خدودها الوردية كما أعْدت جسمه بفتور جفونها وانكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعذّر عليه حتى لتصبح كأنها نجم السُّها الذى تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره، وكان شاعرا بارعا وكاتبا مبدعا، وسنترجم له بين الكتّاب، ومن غزلياته قوله[٦]:

ولما فشا بالدمع من سرِّ وَجْدنا ... إلى كاشِحينا ما القلوبُ كواتمُ[٧]
أمرنا بإمْساك الدُّمُوع جفونَنا ... ليَشْجَى - بما تَطْوِى - عَذولٌ ولائمُ
فظَلَّتْ دموعُ العَيْن حَيْرَى كأنها ... خِلالَ مآقينا لآلٍ توائمُ

وتصويره لدموعه ودموع صاحبته وإمساكهما بها تترقرق فى جفونها ولا تسقط باللآلئ التوائم تصوير بديع.

---

(١) الذخيرة ١/ ٥٧.
(٢) براه: خلقه.
(٣) الذخيرة ١/٤٧١.
(٤) ساوره: وثب عليه.
(٥) السها: نجم خفىّ. الفرغ هنا: الموت والهلاك.
(٦) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكى) طبع القاهرة ص ١٥٤.
(٧) الكاشحين جمع كاشح: العدو المبغض.

وتتكاثر سيول الغزل فى عصر أمراء الطوائف، عصر الغناء واللهو ومجالس الأنس، ونجده متداولا شائعا على ألسنة جميع الأمراء والوزراء والشعراء والفقهاء، وكأنه تمائم يضمونها جميعا الى صدورهم وفى مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين الكتّاب، وكان شاعرا وله غزليات كثيرة منها قوله[١]:

وددتُ بأن القلب شُقَّ بمُدْيةٍ ... وأُدْخِلْتِ فيه ثم أُطْبِقَ فى صَدْرى
فأصبحتِ فيه لاتَحُلِّين غيره ... إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحَشْر
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أَمُتْ ... سكنتِ شِغافَ القلب فى ظُلَم القَبْرِ

وقوله متحولا بمحبوبه، أومحبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية[٢]:

أَمِنْ عالم الأملاك أنت أم ٱنْسِىُّ ... أَبِنْ لِى فقد أزرى بتمييزىَ العِىُّ
أرى هيئةً إنْسِيَّةً غير أنه ... إذا أُعْمل التفكير فالجِرْمُ عُلْوِىّ
عدمنا دليلاً فى حدوثك شاهدا ... نقيسُ عليه غير أنك مَرْئِىّ
ولولا وقوعُ العَيْن فى الكَوْن لم نَقُلْ ... سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

فهو لا يدرى أمحبوبه إنسى أم ملاك طاهر، ويحار، وتعظم حيرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوى، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذى لا يحده مكان حسى. ونلتقى بابن برد الأصغر، وسنخصه أيضا بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعرا، وله غزل بديع مثل قوله[٣]:

لما بَدَا فى لازَوَرْ ... دِىِّ الحَرِيرِ وقد بَهَرْ
كبَّرتُ من فَرْط الجما ... لِ وقلتُ: ماهذا بَشَرْ
فأجابنى: لا تُنْكِرَنْ ... ثَوْبَ السماءِ على القَمَرْ

والأبيات تنم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبى جعفر الخولانى أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية:[٤]

بَدْرٌ ألَمَّ وبدرُ التِّمِّ مُمْتَحِقُ ... والأُفْقُ مُحْلَوْلِكُ الأرجاءِ من حَسَدِ[٥]
أردتُ توسيدَه خَدِّى وقلَّ له ... فقال: كفُّك عندى أفضل الوُسُدِ

---

(١) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكى) طبع دار المعارف ص ٩٢.
(٢) طوق الحمامة ص ٢٥.
(٣) المغرب ١/٩٠.
(٤) الذخيرة ٢/١٣٦.
(٥) بدر التم: البدر فى تمامه واكتماله. ممتحق: مختف نوره. محلولك: شديد السواد.

فبات فى حَرَمٍ لا غَـدْرَ يَذْعَـرُهُ وبِتُّ ظمـآنَ لم أَصْـدُرْ ولم أَرِدِ

فكأنما بات بجوار صاحبته فى حرم مقدس ملتزما للعفاف لا ينقع غُلَّة حبَّه بِرِيٍّ منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يَرِدُه ولا يصدر عنه، بل يكتفى بتكرار النظر للخدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعا أخرى مماثلة فى العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع فى الأندلس - كما مر بنا فى الشواهد السابقة، وكما يلى فى شواهد مماثلة - هذا الغزل العذرى أو الروحى السامى الذى تُعَدّ العفة مقومه الأساسى والذى يجرى فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيتها حتى ليشرد لبُّ المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفيا منها - وهى طوع يديه - بنظراته وكأنه فى حلم - أو - كما يقول الخولانى - فى حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسى العذرى أو الروحى النقى تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسبانى والفرنسى، وهو يتضح عند الإسبان أشد الوضوح فى قصة دون كيشوت لسرڤانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وهو يذكر فى سطورها الأولى أنه يقصُّها عن عربى، وكأنه مترجم لها فحسب. ونمضى فى قراءتها فنشعر كأنما تجسد فى بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحى السامى الأندلسى، وهو يخرج فى حبه عن طوره ويصيبه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه متنقلا فى إسبانيا مقتحما فى أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملا فى رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هى مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حبَّه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحى الأندلسى عند الإسبان فى قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيما نظمه شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر الميلادى، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأقفال والقوافى مع الموشحات الأندلسية[١]، وأيضا فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسى العفيف فى المضمون: فى عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضا فيما يجرى فى هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحيانا وذكر الرقباء والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مُقانا[٢]:

---

(١) انظر الدكتور مكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية (طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ٢/٧٨٨.

لمن طَلَلٌ دارسٌ باللِّوَى ... كحاشية البُرْد أو كالرِّدَا
رمادٌ ونُؤْيٌ ككُحْلِ العروسِ ... ورَسْمٌ كجسمٍ بَراه الهَوَى
غدا مَوْسمًا لوفود البِلَى ... وراح مَراحًا لِسِرْب المَهَا
عجبتُ لطيفِ خيالٍ سَرَى ... من السِّدْر أنَّى إليَّ اهتدى
وكيف تجاوز جَوْزَ الحجازِ ... وجَوْزَ البحار وسِدْرَ المُنَى
ولم يَثْنِه حرُّ نارِ الضلوعِ ... وبَحْرُ الدموع وريحُ النَّوَى
فذكّرَ أيامنا بالعَقيقِ ... ولَيْلتنا بهضاب الحِمَى

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صورا وخواطر جديدة، فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه فى عين المحب الواله الرداءَ المعلمَ أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سوادا والتماعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكتف بأن جعله مسرحا لبقر الوحش مثل امرئ القيس فى مطلع معلقته فقد جعله أيضا موسما لوفود البِلَى، وأيضا لم يكتف فى ذكر المواضع بموضع شجر السدر فى حمى صاحبته، فقد أضاف اليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد وديانه. وكل ذلك ليجلب إلى قصيدته جوَّ بوادى الحجاز وحبّها العذرى الملتاع، وصوَّره مضطرما فى حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تثنيه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمرة من عينيه، ولا ريح النَّوَى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسى بروح الغزل العذرى الظامئ المتلهف أبدا. ويقول محمد بن البَيْن وزير يحيى الوالى على يابُرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) فى إحدى قصائده[1]:

غَصَبوا الصَّباحَ فقسَّموه خُدودا ... واستوهبوا قُضُبَ الأراك قُدُودا
ورأوا حَصَى الياقوت دون محلِّهم ... فاستبدلوا منه النجومَ عُقودا
واستودعوا حَدَقَ المهَا أجفانَهُمْ ... فَسَبَوْا بهنَّ ضَرَاغِماً وأُسُودا
لم يَكْفِ أن سَلَبُوا الأسنَّةَ والظُّبَا ... حتى استعانوا أعينًا ونهودا
وتضافروا بضَفائرٍ أَبْدَوْا لنا ... ضَوْءَ النهارِ بِلَيْلها مَعْقودا

وهى قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهى مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسى مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما فى القطعة من صور طالما

(١) الذخيرة ٢/٨٠٢ والمغرب ١/٣٧٠.

كرره العرب فى غزلياتهم، فقالوا إن الخدود مشرقة كالصباح، والقدود أو القامات كغصون الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسبى الضراغم والأسود، وكأنما الأعين والنهود أسنّةٌ وظبا سيوف، وكأنما الضفائر ليال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقا أندلسيا جديدا، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفرد له ترجمة مع صاحبته ولادة.

ونلتقى بابن الحداد الذى ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام فى ترجمته[١] له: «كان قد مُنِى فى صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نُوَيرة كما صنع الشعراء الظرفاء قديما فى الكناية عمن أحبوه».. وكان اسمها الحقيقى جميلة» وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيرا لكلمة «نار» التى أشعلها حبها فى قلبه» وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها يعرض مرارًا لعقيدة التثليث المسيحية وللقسس والصلوات فى الكنائس، وهو يستهلها بتائية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفالَ بعيد فصحٍ فى إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكا بمصباح وعَصًا ومن حوله القسس وعينه تسرح - كما يقول - فى الحسناوات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول[٢]:

الشمسُ شمسُ الحسنِ من بينهم ... تحت غَمامات اللِّثامات
ونـاظـرى مختلِسٌ لَمْحَهـا ... ولَمْحُهـا يُضْرِمُ لَـوْعـاتى
وفى الحَشَا نارٌ نُـوَيْـرِيَّـةٌ ... عُـلِّقْتُـهـا منـذ سُـنَـيَّـاتِ
لا تَنْطِفى وقتًا وكم رُمْتُهـا ... بل تَلْتظى فى كل أوقاتى

وفى ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات فى البيت الأول ما قد يشير إلى أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائما فى أشعاره لها لا يراها إلا فى الكنائس وبين القسس فى أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصلبان وعقيدة التثليث. وكان حبا فى صباه كما يقول ابن بسام - أو فى بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

---

(١) الذخيرة ٦٩١/١ وما بعدها. (٢) الذخيرة ٧٠٥/١.

وكان فى هذا العصر كثيرات من الحرائر والجوارى يحسنَّ نظم الشعر، إذ كان الآباء - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ فى أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية «العبادية»[١] التى أهداها أميرها مجاهد العامرى إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

تنامُ ومُدْنفهـا يَسْهَـرُ وتَصْبـر عَنْه ولا يَصْبِـرُ

فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هـذا، وهذا بـهِ سيهلك وَجْـدًا ولا يَشْعُـر

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «اعتماد»[٢] الملقبة بالرُّمَيْكيَّة زوجة المعتمد ابنه، وهى إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أنه ركب نهر إشبيلية فى نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زَرَدَ الدِّرْع: فقال المعتمد لابن عمار: أجِزْ

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زَرَدْ

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديهته، فقالت فتاة من الغسَّالات على حافَّة النهر:

أىّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذى صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر النابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أأنت متزوجة؟ فقالت: لا. فتزوجها وهى أم أولاده النجباء: الراضى وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى شاكلة الرُّميكية والعبادية «غاية[٣] المنى» جارية المعتصم بن صمادح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعُرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزى:

سَلْ هَوَى غايةِ المُنَى

---

(١) انظر فى العبادية والخبر المذكور عنها نفح الطيب ٢٨٣/٤

(٢) راجع فى اعتماد الرميكية النفح ٢١١/٤.

(٣) انظر فى غاية المنى القسم الثانى من السفر الثامن للمراكشى ص ٤٨٨ وما بعدها.

فقالت بديهة:

مَنْ كَسَى جِسْمىَ الضَّنَا
وأرانى مدَّلها سيقول الهوى أنا

وأُعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم[١] الكرم، وكان أبوها المعتصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبَّت - كما يقول ابن سعيد - الفتى المشهور بالسمار، وأنشد لها:

ألا ليت شِعْرِى هل سبيلٌ لخلوةٍ ينـزَّهُ عنـهـا سَمْـعُ كـلِّ مـراقـبِ
ويـا عجبًا أشتـاق خَلْوَة مَنْ غدا ومَثْـواه مـابين الحَشَـا والتَّـرائِبِ

والصورة فى البيت الثانى تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضا نظم الموشحات.

ونمضى إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على ألسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التطيلى[٢]:

أريقُ ثَغْـرِك أم بنتُ الزَّراجينِ وعَرْفُ نَشْرِك أم مسكٌ لدَارِينِ[٣]
جسمٌ بَـرَاه الإلهُ حين صـوَّرَهُ من ماء لؤلؤةٍ والناسُ من طينِ
وحاش لله أن يُعْزَى إلى بَشَرٍ أو أن يضافَ لِحُسْنِ الخُرَّدِ العِينِ[٤]
يُديرُ لى مُقَلاً مَرْضَى بـلا سَقَمٍ يُميتنى تـارةً فيـهـا ويُحْيِينى
كم زَفْرَةٍ تستعيرُ النـارُ وَقْدَتَهـا ولـوعـةٍ طَىَّ أضـلاعى تنـاجينى

وهو يقرن ريق صاحبته إلى الخمر ورائحتها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرفأ لسفن الهند على الخليج العربى كانت تُحْمَل إليه أنواع المسك والطيب، طالما أشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبته ملاكا صوَّره الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة

---

(١) راجع فى أم الكرم المغرب ٢/٢٠٢ وما بعدها.
(٢) الديوان ص ٢١١.
(٣) الزراجين جمع زرجون: شجرة العنب. بنت الزراجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية الطيبة.
(٤) الخرد جمع خريدة: الحسناء. العين جمع عيناء: واسعة العين الفاتنة.

إشادة بجمالها الخلاب الذى لا يقاس به - ولا يمكن أن يُقْرن به - جمال الخرَّد العين أو الفاتنات ساحرات العيون من البشر، ويشعر فى حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة، وتكتظ أضلاعه بلوعات محرقة ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة مختصرة، ولابن عبدون[١]:

وما أَنْسَ لَيْلَتنا والعِنا ... قُ قد مَزَجَ الكلَّ منا بكُلّ
إلى أن تقوَّس ظَهْرُ الظلامِ ... وأَشْمَط عارضُه واكْتَهَلْ[٢]
ومسَّ رداءَ رقيقِ النَّسِيمِ ... على عاتق الفَجْر بعضُ البَلَلْ

وقد صوَّر هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلُّت أضواء الفجر وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة خدِّه شيبا. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجو فى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل حينذاك رداء رقيقا على منكب الفجر مسَّه بعض البلل، وهى صورة بديعة. ويقول ابن خفاجة فى وصف صاحبة له[٣]:

غزاليَّةُ الألحاظ رِيميَّةُ الطُّلَى ... مُدَاميَّةُ الأَلْمى حَبَابيَّةُ الثَّغْرِ[٤]
تَرَنَّحُ فى مَوْشِيَّةٍ ذهبيَّةٍ ... كما اشتبكتْ زُهْرُ النجوم على البَدْرِ[٥]
تلاقَى نسيبى فى هواها وأدمعى ... فمن لؤلؤٍ نظمٍ ومن لؤلؤٍ نَثْرِ
وقد خلعتْ ليلا علينا يَدُ الهَوَى ... رداءَ عِناقٍ مزَّقَتْهُ يَدُ الفَجْرِ

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبته مثل الغزال فى سحر عيونه والظَّبْى فى طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فَمَبْسِمُ دَنٍّ خمرى، وأما ثغرها فعلى جِفافيه حَبابُ هذا الدنِّ المسكر، ومن حولها وَشْى ثوبها الذهبى يتجمع كنجوم مشرقة مضيئة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - فى البيت الأخير - يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبته رداء غريبا، هو رداء العناق، ويأسى لأن يد الفجر امتدت له ممزقة إيذانا بالوداع. ويقول يحيى[٦] بن بقى المارة ترجمته بين الوشاحين:

---

(١) الذخيرة ٧١٥/٢ والمغرب ٣٧٥/١.
(٢) أشمط العارض: شابت صفحة الخد.
(٣) الديوان ص ٢٤.
(٤) الريم: الظبى خالص البياض. الطُّلى: العنق. المدام: الخمر. الألمى: الشفة تضرب خفيفا إلى السمرة. الحباب: الفقاقيع على وجه الكأس.
(٥) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضيئة.
(٦) الذخيرة ٦٣٦/٢ والمغرب ٢١/٢.

بـأبى غـزالٌ غـازلتْـه مُقْـلتى ... بين العُذَيْبِ وبين شَطَّىْ بـارقِ[١]
وسألتُ منه قُبْلةً تَشْفِى الجـوَى ... فـأجـابنى فيهـا بـوعـدٍ صـادقِ[٢]
بِتْنـا ونحن من الدُّجى فى لُجَّةٍ ... ومن النجوم الزُّهْـر تحت سُرادقِ
حتى إذا مالتْ به سِنَةُ الكَرَى ... زَحْـزَحْتُـهُ شيئـا وكـان مُعـانقى[٣]
بـاعـدتُـه عن أضْلعٍ تشتـاقـه ... كيـلا ينـامَ عـلى وِسـادٍ خـافقِ

وهو يتخيل أنه لقى صاحبته بين موضعين من المواضع التى طالما لقى فيها شعراء الغزل العربى محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدَّت له فى الوصال واللقاء، وأنها باتت معه فى ليلة تحت سرادق النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقد أجفانها دفعه حنوُّه عليها إلى أن يزحزحها قليلا عن صدره الذى توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وِسادٍ خافق بحبها نابض نبضا شديدا. ويقول ابن باجة المتفلسف[٤]:

همُ رحلوا يـومَ الخميسِ غُـدَيَّـةً ... فـودَّعْتُهم لـما استقلُّوا وودَّعـوا[٥]
ولـما تـولَّـوا ولَّت النفسُ إثْـرَهُمْ ... فقلت: ارْجعى قالتْ إلى أينَ أرجعُ
ولى جسدٌ مـا فيـه لحمٌ ولا دمٌ ... ولا هــو إلا أعْــظُمٌ تَتَقَعْقَــعُ[٦]
وعينـان قد أعْـماهما كثـرةُ البُكا ... وأُذْنٌ عَصَتْ عُـذَّالَها ليس تسمـع

وهو يقول إن صاحبته وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحا فودَّعوه وودَّعهم ورحلت نفسه فى إثرهم، وعبثا يدعوها إلى الرجوع وهى تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضنى جسدى ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظما فوق أعظم. وحين تتحرك أى حركة تسمع قعقعتها وأصواتها، فقد صار جلدا على عظم كما يقولون، وابيضَّت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لغو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللائى أظلَّهن عصر المرابطين ولحقن - فى أغلب الظن - عصر الموحدين نَزْهون وحمدة الغرناطيتان، أما نزهون[٧] فيقول ابن الأبار أحسب أن

---

(١) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما بنجد.
(٢) الجوى. الوجد. (٣) الكرى: النوم.
(٤) الخريدة ٣٣٣/٢. (٥) استقلوا: رحلوا.
(٦) تتقعقع: تتحرك مع صوت.
(٧) انظر فى نزهون وأخبارها وشعرها المغرب ١٢١/١ وتحفة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكررًا

والذيل والتكملة [illegible] السفر الثانى، نشر بشرها [illegible] والبغية ص ٥٣٠ والنفح ٤ ٢٩٠ والإحاطة [illegible] ٤٢٤/١، ٣٤٤/٣ وراجع فى أدبها المكتبة [illegible] ٥١٥.

أباها محمد بن أحمد الملقب بالقليعى قاضى غرناطة إلى أن توفى سنة ٥١٠ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت نابه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها فى الأدب، ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومى الذى مر ذكره بين شعراء الهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادر مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء، ويقال إن الكتندى الشاعر الغرناطى دخل يوما مجلسا كانت تقرأ فيه بعض الشعر على المخزومى فقال له - وكان أعمى - أَجِزْ:

لو كنت تبصر من تكلِّمُهُ

فأُفْحم الأعمى ولم تسعفه بديهته، فبادرت نزهون قائلة ومثنية على نفسها فى سرعة خاطفة.

لغدوتَ أخرسَ من خلاخِلِهِ
البــدرُ يَطْلُعُ من أزِرَّتــهِ والغُصْن يَمْرَحُ فى غَلائلِهِ

ويروى أنه لقيها ابن قزمان الزجال وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بنى إسرائيل ولكن لا تسرُّ الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرتهم: بأنها (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). ومر بنا فى حديثنا عن المخزومى بين شعراء الهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته نزهون، وأنها ردت عليه وألقمته حجرا أخرسه. وأما حمدة[1] فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقىّ ربَّاها هى وأختها زينب تربية فاضلة تثقفا فيها ثقافة أدبية واسعة، حتى أحسنتا نظم الشعر وصوغه. ويترجم ابن الأبار لحمدة فى التكملة وفى التحفة ويقول: من أهل مدينة وادى آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأديبات المتظرفات العفيفات، وفى كتاب المُغرب أنها حسناء المَغرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرى عن ابن سعيد أنها هى وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحب لها إلى النهر فى مدينة وادى آش، وهو يجرى بين بساتين ورياض، ولما خلعن

(١) راجع فى ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادم رقم ١٠٠ والتكملة رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ والذيل والتكملة للمراكشى ٤٨٥/٨/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونفح الطيب ٢٨٧/٤.

ثيابهن ونظرت إلى صاحبة لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن فى النهر سابحات متلاعبات قالت فى محبوبتها:

أباح الدَّمْعُ أسْرارِي بوادى ... له فى الحسن آثارُ بَوَادِى[1]
فمن نَهْرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ ... ومن روضٍ يَرِفُّ بكل وادى
ومن بين الظباءِ مَهاةُ إنْسٍ ... لها لُبِّى وقد سلبتْ فؤادى[2]
لها لَحْظٌ ترقِّدُه لأمْرٍ ... وذاك الأمرُ يمنعنى رُقادى
إذا سَدَلتْ ذَوائبها عليها ... رأيت البَدْرَ فى جُنْح الدآدى[3]
كأنَّ البدر مات له شقيقٌ ... فمن حُزْنٍ تَسَرْبل بالسَّوادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كانت صاحبتها فى منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة فى النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورود عبقة بالرياحين، وصاحبتها التى خلبت لبها تلعب معها ومع صواحبها فى المياه، ولطالما سهرت الليالى تفكر فى سحر عينيها، وها هى تسدل أحيانًا ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنما ترى قمرا يطل فى جنح الليالى الحالكة أو كأنما مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب[4]:

ولما أبَى الواشون إلا فِراقَنا ... ومالهُمُ عندى وعندك من ثارِ
وشَنُّوا على أسْماعنا كلَّ غارةٍ ... وقلَّ حُماتى عند ذاك وأنْصارى
غزوتهمُ من مُقْلتيك وأدمعى ... ومن نَفَسى بالسَّيْف والماء والنارِ

وواضح ما فى البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسيل والنار، وهى مقابلة بديعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير فى الشعر العربى من قديم، ومنه أمثلة كثيرة فى الشعر الأندلسى قبل زينب.

وتظل سيول هذا الغزل الرائع تتدفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية فى عصر الموحدين، ويلقانا فى صدره محمد بن عياض صاحب المقامة العياضية، وهى مقامة غزلية،

---

(١) بوادى الأخيرة: ظاهرة.
(٢) المهاة: بقرة الوحش واسعة العينين.
(٣) الدآدى: الليالى الأخيرة فى الشهر القمرى، وهى حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.
(٤) نفح ٢٠٨/٣ وفى المغرب أن الأبيات لأختها حمدة.

ولذلك تتضمن بعض مقطوعات فى الغزل، ومن أروعها قوله[١]:

أنكرتُ إلا سَقَامَ طَرْفٍ ... وأىَّ سيفٍ بلا ذُبابِ[٢]
إن أنا لاحظتُه توارَى ... من دَمْعةِ العين فى حِجابِ
أبْصَرْتُهُ جدولا ووُرْقًا ... من دَمْعِ عَينىَّ وانتحابى[٣]

وتشبيه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول فى الشعر العربى من قديم، ولكن ترقرق الدموع فى عينيه بالبيت الثانى حتى لتصبح حِجابا بينه وبين رؤية صاحبته تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديما، وإن كان قد أخرجهما إخراجا طريفا. والغزل فى الأندلس يتشابك بقوة مع الغزل العربى الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا فى غزلية لمتفلسف الأندلس أبى بكر محمد بن طُفَيْل الذى تحدثنا عنه فى نشاطها الفلسفى، إذ يستهلها على هذا النمط[٤]:

ألمَّتْ وقد نام الرقيبُ وهَوَّما ... وأسْرَتْ إلى وادى العَقيق من الحِمىَ[٥]
وجرَّتْ على تُرْب المحصَّب ذَيْلَها ... فما زال ذاك التُّرْبُ نَهْبًا مقسَّما[٦]
تناقَلُه أيدى التِّجارِ لَطِيمةً ... ويَحْمله الدارىُّ أيَّان يَمَّما[٧]
ولما رأتْ أن لا ظلامَ يُجِنُّها ... وأن سُرَاها فيه لن يُتَكَتَّما[٨]
أزاحتْ غَمامَ العَصْب عن حُرِّ وَجْهِها ... فأبدتْ شُعاعا يُرْجع الصُّبْحَ مظلما[٩]
فكان تَجَلِّيها حِجابَ جمالِها ... كشمس الضُّحىَ يَعْشَى بها الطَّرْفُ ساهما

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسى لظنناه أمويا من شعراء نجد العذريين أو عباسيا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبى تمام متخذين منها رموزًا لإسباغ العذرية والعفاف الملتاع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسى بدوره يتخذ تلك العناصر

---

(١) مغرب ١/٣٤٥.
(٢) ذباب السيف: حده القاطع.
(٣) ورق جمع أورق: ما لونه رمادى من الحمام.
(٤) مغرب ٢/٨٥ والمعجب ص ٣١٦ وتحفة القادم رقم ٤٣.
(٥) هوم: مال رأسه فى النعاس. أسرت: سارت ليلا. وادى العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف ونجد.
(٦) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.
(٧) اللطيمة: وعاء المسك. الدارى: العطار نسبة إلى دارين: فرضة أو مرفأ كان يحمل إليه قديما المسك من الهند. يمّم: قصد.
(٨) يجنها: يسترها، سراها: سيرها ليلا.
(٩) العصب: العصابة على الرأس وطرف الوجه. حر ظاهر.

رموزا تصور كيف أن جذوة الحب العذرى الطاهر لا تزال متقدة فى نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادى العقيق ومن مكة المحصَّب، وجعل التراب الذى يمر عليه ذيل ثوب صاحبته مسكا، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولمعت فى ذهنه ذكرى العطار الذى ذكره الغزلون القدماء مرارا فى مثل قول الشاعر العربى القديم متحدثا عن ولع صاحبته بالمسك والتعطُّر به:

إذا التاجرُ الدارىُّ جاءَ بِفَأْرَةٍ من المسكِ راحتْ فى مَفارقها تَجْرِى[١]

ويفضى إلى الحديث عن جمال صاحبته الذى بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها مهما صنعت، فأزاحت العصابة عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس فى الصباح، بل إن ضوء الصباح ليبدو مظلما بالقياس إلى ضوئها، ولعله فى ذلك نظر إلى قول أبى تمام:

بيضاء تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نورا وتَمْشِى فى الضياء فيظلمُ

وما يلبث ابن طفيل أن يحلق فى خياله، إذ يتصور جمال صاحبته حجابا لها يُعْشى الناظرين فيدفعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا آنفا عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبته حفصة الركونية. ونلتقى فى مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثراء هو ابن أبى روح، وله يصف ليلة[٢] قضاها مع صاحبته فى متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادى العسل لحلاوته[٣] كما يقول ابن سعيد:

عرِّج بوادى العَسَلِ وقِفْ عليه واسْألِ
عن ليلةٍ قطعتُها صُبْحًا برغمِ العُذَّلِ
أرشُف خمرَ الرِّيقِ أو أقطفُ وردَ الخجَلِ
وقد تعانقنا اعتنا قَ القُضْب فوق الجدولِ[٤]

---

(١) فأرة المسك: وعاؤه. الدارى: العطار.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (تحقيق د. النعمان القاضى طبع القاهرة) ص ٥٤.

(٣) المغرب ١/٣٢٠ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجد المياه الجارية والبساتين النضرة، ونهرها يعرف بوادى العسل لحلاوته وعليه حاجب مشرف على النهر والبحر فى نهاية من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.

(٤) القضب: الغصون.

والشَّمْـعُ فى دِرْعِ الغَـديـرِ كعَـوَالى الأسَـلِ[١]
بِتْنـا إلى أنْ حَثْنـا إلى النَّوَى بَرْدُ الحُلَى

وابن أبى روح يتمثل فى البيت الأخير من المقطوعة ما جاء فى كتاب الأمالى من أن عربية سُئلت كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلى. وهو يصور ليلة هنيئة له قضاها مع صاحبته متعانقين يقطف من ورد الخجل ويجنيان معا من زهرات حبهما، وكأنما كانت ليلة من ليالى العرس، فالشموع متقدة متلألئة على سطح الغدير وعادة يشبهه العرب بالدرع لما تحدثه الرياح فيه من غضون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين شعراء الطبيعة[٢]:

وواعـدتُها والشمسُ تَجْنَحُ للنَّوَى بِزَوْرتِها ليلا وبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِى
فجاءتْ كما يمشى سَنَا الصُّبْحِ فى الدُّجَى وطورًا كما مرَّ النسيمُ على النَّهْرِ
فعطَّرتِ الآفاق حـولى فأَسْعَـرَتْ بمَقْدَمِها والعَرْفُ يُشْعِرُ بـالزَّهْـرِ[٣]
فتـابعتُ بـالتَّقبيـل آثـارَ سَعْيِهـا كما يتقصَّى قارئٌ أَحْرُفَ السَّطْرِ
فبِتُّ بها والليلُ قد نام والهوَى تنبَّه بين الغُصْنِ والحِقْفِ والبَدْرِ[٤]
أعـانـقُهـا طـورًا وألْـثِمُ تـارةً إلى أن دعتْنا للنَّوَى رايةُ الفجْرْ
ففَضَّتْ عقـودًا للتعـانق بيـننـا فيا ليلةَ القَدْر اتركى ساعةَ النَّفْرِ

والمعانى والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها النسيم العليل الذى يحيى النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنما استحال الثرى تحت أقدامها طيبا ذكى الرائحة وهو ما ينى يقبِّل مواضع خَطْوها، وكانت ليلة سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنما كانت ليلة القدْرُ الهنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنحتها عن الكون، حتى يؤجّل الوداع ولو إلى حين.

ونلتقى بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكماله الأربعين صاحب كتاب زاد المسافر فى شعراء زمانه المتردد ذكره فى الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا

---

(١) الأسل: الرماح: عواليها: أطرافها القاطعة.
(٢) النفح ١٩٩/٣.
(٣) العرف: الرائحة العطرة.
(٤) الحقف: الكثيب من الرمل.

بديعا[١]:

يا حُسْنَهُ والحسن بعض صفاتهِ ... والسِّحْرُ مقصورٌ على حركاتهِ
بَدْرٌ لو آنَّ البدرَ قيل له: اقترحْ ... أملًا لقال أكون من هالاتهِ
صاحبتهُ واللَّيْلُ يُذْكِى تحته ... نارَيْن من نَفَسى ومن وَجناتهِ[٢]
وضَمَمْتُهُ ضمَّ البخيل لمالهِ ... أَحْنُو عليه من جميع جِهاتهِ
أوثقتُه فى ساعِدىَّ كأنَّه ... ظبيٌ أخافُ عليه من فلتاتهِ
وأبَى عفافى أن أقبِّل ثَغْرَهُ ... والقلبُ مطويٌّ على جَمَراتهِ
فاعجبْ لملتهبِ الجَوانح غُلَّةً ... يَشْكُو الظُّما والماءُ فى لَهَوَاتهِ[٣]

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جمالا خلب لُبَّه، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن يكون من هالات جمالها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد فى جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضمها إلى صدره ويعف عن تقبيلها، وهى طوع يديه، وهو ظامىء ظمأ شديدا، والماء فى أعالى حلقه، ويجاهد حتى لا ينزلق إلى صدره الملتهب ويطفىء غلته. وعلى هذا النحو يردُّنا غَزِلون أندلسيون إلى نجد وغزلها العذرى عند مجنون ليلى وأضرابه بمثل هذا التصوير الرائع للعفاف الملتاع، بجانب ما استشعروه من العناصر البدوية وعرض صورها البديعة على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. ونلتقى فى عهد الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) بشاعره أحمد بن شَطْرِيَة الذى اختطفه الموت فى ريعان شبابه، ومن غزله الطريف[٤]:

سَتَر الصُّبْحَ بِطُرَّهْ ... وجَلَا الليلَ بِغُرَّه
كعبةٌ للحُسْنِ فى كلِّ فؤادٍ منه جَمْرَه
جاءنى كالظَّبْيِ فى أشْرَاكهِ إذ حَلَّ شَعْرَه[٥]
ومَضَى عنى ولكنْ ... بعد ما خلَّفَ نَشْرَه[٦]

ويقول على بن حريق[٧]:

---

(١) انظر فى ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢٦٠/٢ ورايات المبرزين ص ١١١ والتكملة ص ٤٢٩ والتحفة رقم ٥٢ الإحاطة ٣٤٩/٣ ومقدمة كتابه زاد المسافر لعبد القادر محداد.

(٢) يذكى: يضرم ويوقد.

(٣) لهوات جمع لهاة: أعلى الحلق.

(٤) انظر المغرب ١٤٠/١.

(٥) أشراك جمع شَرَك: حبالة الصائد.

(٦) نشره: عطره.

(٧) المغرب ٣١٩/٢.

كلَّمْتُه فاصفرَّ من خجَلٍ حتى اكْتَسَى بالعَسْجَد الوَرِقُ
وسألته تقبيلَ وَجْنتِهِ فأبى وقال: أخاف أحترقُ
حتى زَفيرى عاقَ عن أملى إن الشقيَّ بِريقِهِ شَرِقُ

وهو يشبه صفرة الخجل التى كست خد صاحبته بالعسجد أو الذهب ووجنتها بالورِق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبته خشيت لو قبَّلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقيَّ بريقه شَرِقٌ أو غاصّ. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحدين سهل بن مالك الذى مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلا[١]:

ولما بدا ضوء الصَّباح رأيتُها تنفَّضُ رَشْحَ الطلِّ عن ناعمٍ صَلْتِ[٢]
فقلتُ: أخاف الشمسَ تفضح سِرَّنا فقالتْ: معاذَ الله تفضحُنى أختى

وسهل يتصور صاحبته زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضىء فى الصباح نَدى العرق، ويخوِّفها من إذاعة الشمس لسرهما، وتطمئنه، فهى أختها ولن تذيع لها سرا. ويقول ابن سعيد[٣] صاحب كتاب المغرب المبثوث فى الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس[٤]:

وهبتُ فُؤَادِى للمَباسم والحَدَقْ وحَكَّمْتُ فى جَفْنى المدامعَ والأرَقْ
ولم أستطع إلا الوفاءَ لغادرٍ ويا ليتنى لما وَفيتُ له رَفَقْ
ومن أجله قد رقَّ جسمى صَبَابَةً ويا لَيْتَهُ لما رآهُ عليه رقّ

ومنذ أواسط القرن السابع الهجرى - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشعر أن نبع الغزل الذى كان متدفقا فى بلدان الأندلس أخذ يغيض وتغيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنهم واحدة إثر أخرى فى حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التى ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الراسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفجع ملبد بالغيوم. وطبيعى أن يعم الغزل فى تلك الإمارة غير قليل من التكلف وأن يُصاغ كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرهما من محسنات البديع، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شىء من الوجد، ونشعر دائما عندهم بغير قليل من التصنّع وأنهم يبدئون ويعيدون فى خواطر

---

(١) رايات المبرزين ص ٨٦. الفصل الثانى.
(٢) الجبين الصلت: الجبين الوضيئ المشرق. (٤) المغرب ١٧٨/٢.
(٣) انظر مصادر ترجمة ابن سعيد بين المؤرخين فى

الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى فى الكلمة التى سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما فى قصيدة لابن جُزَىّ من وجد قائلا إنها من الغراميات التى سلك فيها مسلك مجنون ليلى، وربما كان أجمل ما فيها قوله:[1]

تباعدتُ لما زادنى القُرْبُ لوعةً ... لعل فؤادى من جَوَاه يُفيقُ
ولا سلوةٌ تُرجَى ولا الصبرُ ممكنٌ ... وليس إلى وَصْل الحبيب طريقُ
شجونٌ يَضِيقُ الصَّدْرُ عن زَفَراتها ... وشوقٌ نطاقُ الصبر عنه يَضِيقُ
فيا غائبًا عن ناظرىَّ أما يُرى ... لشَمْسك من بعد الغروب شُرُوقُ

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلى من أصحاب الحب العذرى، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتّقد فى أفئدة العذريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل فى الغزل من زخارف البديع وكأنما أصبحت هى - لا الغزل ووجد المحب - الغاية فى ذا! الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى فى قول ابن جُزَىّ[2]:

أَبِحْ لىَ يا روضَ المحاسن نظرةً ... إلىَّ وِرْدِ ذاك الخدَّ كنتُ لك الفِدَا
وبالله لا تَبْخَلْ علىَّ بِقَطْفَةٍ ... فإنى عهدتُ الروضَ يوصَفُ بالنَّدَى

وليس المراد بالندى المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - فى الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويموج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المترجم له فى الفصل السابق - بالغزل، بل إنه محوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وسَلْع والجَرْعاء والعُذَيْب والرقمتين والغزال والرِّيم والقِباب والخيام والإبل المودِّعة. وحقا هذا كله يطبع به الغَزِلون الأندلسيون أشعارهم وصلا محكما لها بالشعر العذرى ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحى متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضى ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندهما من الرقة والوجد واللوعة وأيضا ما عندهما من صفاء التعبير وعذوبته، ومن أجمل ما نقرأ له فى غزلياته قوله:

---

(١) الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب ص ٢٢٥.
(٢) الكتيبة الكامنة ص ٢٢٧.

هل البانُ يحكى من معاطفكِ القَدَّا ... أو الوَرْدُ فى توريده يُشْبه الخَدَّا
لقد أخطأ التشبيه مَنْ حَسِب السُّهَا ... يقاوم فى آفاقه القمر السَّعْدا
وهل لحُلَى ليلى نظيرٌ وإن هُمُ ... يظنون منها الثَّغْر قد أشبه العِقْدا
هى الغايةُ القصوى محاسِنُ لم تجد ... شبيهًا لها فى الغانياتِ ولا نِدَّا

وهو يريد أن يقول إن قدَّ ليلى أرشق من قَدِّ البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد جمالا وبهاء، ومَثَلُ أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذى لا يكاد يبين سَناه بالقياس إلى ضوء البدر الذى يملأ الآفاق نوره، وثغرها فى بياضه وصفائه يشبه درر العقد المتلألئة. وكل هذه التشبيهات مرت بنا فى أخيلة بديعة تصور انبهار الغزلين بجمال صواحبهن، وقد أضعفها عنده أيضا عرضها فى صور من الاستفهام واقترانها بالحسبان والظن.

ولعله يحس بنا أن نتوقف قليلا عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم: الرمادى، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

الرَّمادى[1] الكندى

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندى المعروف بالرمادى، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب فى زمنه، يقولون: فُتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندى فى الجاهلية والمتنبى والرمادى القرطبى الكنديين. أما لقبه الرمادى فيقول ابن بشكوال فى الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هى: «أبوجنيس» ويبدو أنه كناه بها أحد معاصريه على نحو ما مرَّ فى كُنْيات وألقاب شعراء آخرين مثل البَلِّينة أى الحوت. وقال ابن سعيد فى المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلا لكنية: «أبى جنيس» الإسبانية أو

---

(١) انظر فى ترجمة الرمادى وشعره الجذوة ص ٣٤٦ والمطمح ص ٦٩ والبغية ص ٤٧٨ والصلة ص ٦١٣ والمغرب ٣٩٢/١ والمطرب لابن دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٢٢٥/٧ واليتيمة ١٤/٢ ، ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء ٦٢/٢٠ والذخيرة ٣٢٢/١ و ١٤١/٢ و ٣٤٦/٣، ٨٢١ و ١٢٠/٤ وانظر تاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٥٥.

الرومانثية لقيل: «أبو الرماد» لا الرمادى. وقد تتلمذ لأبى على القالى وروى عنه كتاب النوادر الملحق بالأمالى، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميرًا من بنى ذى النون الطليطليين. وأخذ يشتهر فى الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان فى المطمح إنه: شاعت عنه أشعار فى دولة الحكم ورجالها سدَّد إليهم سهاما فأوغرت عليه الصدور،وسجنه الحكم دهرا، ثم رُدَّت إليه حريته بعد وفاته، وفى سجنه ألف كتابا عن الطير ختم كل حديث له فى طائر بأبيات فى مديح الحكم ولكنها لم تُلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمور فى جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادى قصيدة يتوجع فيها متألما لشاربيها. وفى أشعاره بعض خمريات وبعض غزل فى الغلمان ولا ندرى أكان ينظم فى ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأضرابه من المشارقة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته فى السقاة بمثل قوله:

فُتِّحتِ الجنَّةُ من جَيْبِهِ فبتُّ فى دَعْوة رضوانِ[1]
مروَّةٌ فى الحبِّ تَنْهَى بأنْ يجُـاهَـرَ اللّهُ بعصيـانِ

وقوله:

وما بىَ فخرٌ بـالفجور وإنمـا نصيبُ فجورى الرَّشْفُ والشَّفَتانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجنا. ويقال إنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبى عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شىء من مدائحه لهما، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبى عامر إذ توفى سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والجذوة والمغرب واليتيمة للثعالبى تحتفظ جميعا بغزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البَيِّن فى مثل قوله:

هُـوَ ظـالمى لكنْ أرِقُّ عليـه مـن أن أُجيـلَ الـلحظَ فـى خَـدَّيْـهِ
أَعْفَيْتُ رِقَّـةَ وجْنَتَيْـهِ مـن أذَى عَيْنى ومـا أُعْفِيتُ مـن عَيْنيـه

ومع ما يحمل البيتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على خدود صاحبته من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضا الخاصة الثانية فى غزله، وهى البعد فى التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالخدود، ولعله

---

(١) جيب الثوب: فتحته العليا.

يشير بذلك إلى الحياء والخجل الذى يلم بصاحبته فتحمر وجنتاها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدى فى الجذوة من قوله:

غَـدًا يَـرْحَلون فيـا يـومُ رِسْلَـ ـكَ كُنْ بالظلام بطيءَ اللَّحاقِ[1]
ويـا دَمْـعَ عينىَ سُـدَّ الـطَّريقَ وأفـرِغْ عليهم نَجِيـعَ المـآقى[2]
ويـا نَـفْسِى جِئْهُمُ من أمـام وقـابلهمُ بنـسيـمِ احـتـراقِ
ويـاهمَّ نَفْسى بهمْ كُنْ ظلامـاً وقَـيِّـدهمُ عـن نَـوًى وانـطلاقِ
ويـاليـلُ من بعـد ذا إنْ ظَفِـرْ تَ بالصُّبْح فاقذفْ به فى وَثاقِ

فصاحبته سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يتريث فى مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم القانى، فتسد الطريق على هذا الركب، كما يتجه إلى نَفَسه الحارّ بالحب وشراره أن يلفح الركب بلهيبه المشتعل حتى لا يستطيع مسيرا، وبالمثل يتجه إلى هموم نفسه مبالغا فى وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الركب انطلاقا، وحتى الليل يبالغ فى وهمه إزاءه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق. وكل ذلك إغراق فى الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

على كَمَدى تَهْمِى السحابُ وتَذْرِفُ ومن شَجَنِى تَبْكى الحمامُ وتهتفُ

فالسحاب إنما يذرف دموعه لما يرى من كمده وهمِّه وضناه، والحمام إنما يبكى وينوح لما يرى من شجنه وحزنه، ومن طريف صوره الغزلية قوله:

وإذا أراد تنـزُّهًا فى رَوْضَـةٍ أخذَ المِراةَ بكفِّـهِ فأدارهـا[3]

وهى مبالغة واضحة فى الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن فى رأيه لا تحتاج إلى روضة. تقضى فيها نزهة تمتع به نفسها، إذ حسبها أن تنظر فى مرآتها فترى أروع روضة، ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبته بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادى الكندى كان شاعرا متفننا، فلا غرو أن يتفنن فى الموشحة الساذجة عند القبرى، ويتيح لها - كما مر بنا - تطورا جديدا بالغ الأهمية.

---

(١) رسلك: تمهل.
(٢) نجيع: دم.. مؤق العين: طرفها من جهة الأنف، وهو مجرى الدمع.
(٣) المراة: المرآة.

الشريف[١] الطليق المروانى

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعشق جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيرته من أبيه، فانتضى يوما سيفا وانتهز فرصة منه، فقتله، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة، فزجَّ به المنصور بن أبى عامر فى السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة تالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفى قريبا من سنة أربعمائة. ويقول ابن حزم فى كتاب الحلة السِّيَراء: «أبو عبد الملك هذا فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه». ويقول فى جمهرة أنساب العرب: «مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين». ويروون له أشعارا نظمها فى السجن وينقصها الإحساس بالمرارة، وكأنما يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها أشعار كثيرة فى الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربى، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة، مع العناية بالأخيلة والتصاوير، من ذلك قوله متغزلا فى قافيَّة له مشهورة:

غُصُنٌ يهتزُّ فى دِعْصِ نَقَا ... يَجْتَنِى منه فؤادى حُرَقا[٢]
أطلعَ الحسنُ لنا من وَجْهِهِ ... قمرًا ليس يُرَى مُمَّحِقَا
ورَنا عن طَرْفِ ريمٍ أحْورٍ ... لحظُهُ سَهْمٌ لقلبى فُوِّقا[٣]
باسمٌ عن عِقْدِ دُرٍّ خِلْتُه ... سلبتْه لِثتاهُ العُنُقا
سال لامُ الصُّدْغ فى صَفْحتهِ ... سيلانَ التِّبْر وَافَى الوَرِقا[٤]

ونشعر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة فى نسق صوتى بلذ الأسماع والألسنة، وحقا تشبيه قامة المرأة بالغصن النابت فى كثيب نقا أو رملة متداوَلُ وكذلك تشبيهها بالقمر وبظبى أحور، وهى تسدِّد السهام إلى قلوب

---

(١) انظر فى ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة السيراء ٢٢٠/١ والمغرب ١٩١/١ والحميدى ص ٣٢١ والبغية ص ٤٤٧ والمعجب ص ٢٨٥ وما بعدها ونفح الطيب ٥٨٦/٣ وما بعدها والذخيرة ٥٦٣/١ وما بعدها وجمهرة الأنساب لابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كثيب. نقا: رملة.

(٣) ريم: ظبى. فوِّق: سُدِّد.

(٤) الصدغ: الشعر المسدل بين الأذن والعين. الورق: الفضة.

المفتونين بها وأيضا تشبيه الأسنان فى اللثة بعقود در وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة، كل ذلك ردده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويحوِّر فيه تحويرات تروع قارئه. ومن غزله قوله:

ودَّعتُ مَنْ أهوى أَصِيلاً ليتنى ... ذُقْتُ الحِمـام ولا أذوقُ نَـواهُ
ووجدتُ حتى الشمسَ تشكو وَجْدَهُ ... والوُرْقُ تندب شَجْوها بِهَواه[1]
وعلى الأصائل رِقَّـةٌ من بُعْده ... فكـأنهـا تلقى الـذى أَلقـاهُ
وغـدا النسيمُ مبلِّغـا مـا بيننـا ... فلذاك رَقَّ هَوًى وطاب شَذاه[2]
ما الرَّوضُ قد مُزِجتْ به أنْداؤهُ ... سَحَرًا بأطيبَ من شَذَا ذِكْراه
ولـذاك أُولَعُ بـالريـاض لأنهـا ... أبـدًا تـذكِّـرنى بمن أهْـواهُ

وهو يصور وجده والتياعه بذكرى من يهواها من خلال عناصر الطبيعة، فالشمس فى وداعها للأفق أصيلا وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنما تشكو وجدها بحبها، وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنما سُكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريجه العطر، وإن شذى ذكراه لصاحبته ليفوق شذى أى روض تتفتح أزهاره الندية سحرا، وهو ما يجعله صبًّا بالرياض إذ تمثِّل عناصرها صاحبته له وتجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائما نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولغته من صفاء وسلاسة.

ابن[3] زيدون وولَّادة[4]

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومى الأندلسى ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ فى بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين

---

(١) الورق: الحمام الرمادى اللون
(٢) الشذى: رائحة الطيب والمسك.
(٣) انظر فى ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ٣٣٦/١ وما بعدها والحميدى ص ١٢١ والقلائد ص ٧٠ والمطرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشى ص ١٦٢ والمغرب ٦٣/١ والخريدة ٤٨/٢ وابن خلكان ١٣٩/١ والبغية رقم ٤٢٦ ومقدمتى سرح العيون وتمام المتون لرسالتيه الهزلية والجدية وكتابنا عنه طبع دار المعارف وديوانه وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور على عبد العظيم.
(٤) راجع فى ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ٤٢٩/١ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧ والمغرب ٦٥/١، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمطرب ص ٧ والوافى للصفدى ٢٥١/٤ ونفح الطيب ٢٠٥/٤ وما بعدها.

(٣٩٩ - ٤٠٧ هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثراء، وعُنى أبوه بتربيته إلى أن توفى سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه فى شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفى من حب، وقد توفى أبوها سنة ٤١٦ وما توافى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية فى قرطبة، ويتولى أبو الحزم جهور مقاليد الحكم وجعله حكما شوريا ديمقراطيا من خلال مجلس كان يرجع إليه فى سياسته وتدبير شئون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله فى حاشيته، ودُسَّ عليه حوالى سنة ٤٣٠ أنه يشترك فى مؤامرة ضد أبى الحزم جهور، وتصادف أن اتُّهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به أبوالحزم فى السجن، واستعطفه برسالته الجدية وبقصائد مختلفة، غير أنه ظل يُصِمّ أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقا له - فرد إليه أبو الحزم حريته. ويتوفى سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيرا له، ويوفده فى عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدبِّر فى سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبى الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطربا ويرسل إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيرا له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيرا لابنه المعتمد إلى أن يلبى نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر فى الأندلس، وله مدائح رائعة فى أبى الحزم بن جهور وابنه أبى الوليد والمعتضد عباد، وله أيضًا مراث بديعة. غير أن القطعة الأرجوانية فى حياته وشعره هى كلفه بولادة وما نظمه فيها من غزل، وكانت أديبة شاعرة، واتخذت لها مجلسا أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحيانًا البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: «كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفِناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يَعْشُو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتَّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نِصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية فى فرنسا اللائى نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات يختلف

إليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمتفلسفة لما يمتزن به من رجاحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شيء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها فى الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، لهن مثل مجلسها ومنتداها على نحو ما مرَّ بنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطى سير بن أبى بكر وممدوحة الشاعر الأعمى التطيلى، وكما سنرى عما قليل مثيلتها حفصة الرَّكونيَّة فى عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللائى ترجم لهن المقرى واللائى يبلغن أربعا وعشرين كان لهن مجالس ومنتديات على شاكلة ولادة. وهى ثمرة الحرية التى استمتعت بها المرأة فى الأندلس والتى أشرنا إليها مرارًا. وينبغى أن نفرق دائما بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاتها فى الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قُدْنَ فى المجتمع الأندلسى نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال «مع طهارة أثواب»، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: «مع علو نِصاب، وكرم أنساب» وكذلك كانت مثيلاتها من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداها الفتى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظبا على ذلك أيامًا وشعر أنها تؤثره، فوقعت فى قلبه كما وقع فى قلبها، واتصل بينهما الوُد، ويروى أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتى ... فإنى رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسِّرِّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ ... وبالبَدْرِ لم يَطْلُعْ وبالنجم لم يَسْرِ

واتصل بينهما اللقاء فى منتداها وفى حدائق قرطبة، تغمرهما نشوة الحب، وتارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الغزلين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ ... سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لَقِى
تمرُّ الليالى لا أرى البَيْنَ يَنْقَضِى ... ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّق مُعْتِقِى

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جحيم هجرها وبُعْدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مغازلته لإحدى جواريها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض

شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ فى حقها أو فى حَقِّ شعرها خطأ كبيرا. ويقال إنها صَبَتْ إلى أديب نابغ ترى ممن كانوا يختلفون إلى منتداها هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخرًا منه كما كتب إليه قصائد مهددا متوعدا، غير أن ولادة لم تصفح عنه، وظل مبعدا محروما. وغزله فيها- كما صورنا ذلك فى كتابنا عنه- يصور ثلاث مراحل: مرحلة وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرَّة عينه ويسعد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقة والالتياع العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتئس الباكى النادب لحظه. وغزله يعدُّ فى الذروة من الغزل العربى وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيهما من لوعاته المحرقة الممضة، ومن أروع قصائده الغزلية فى صاحبته قافيته التى يستهلها بقوله:

إنى ذكرتُكِ بـالزَّهْـراءِ مُشْتاقـا والأُفْقُ طَلْقٌ ومَرْأَى الأرضِ قد رَاقَا

وهو يذكر منتداها فى قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين، وتغمره اللوعة واللهفة على لقائها ويُشْرك الرياض التى طالما جاسا معا خلالها وتجوَّلا بين أشجارها وأزهارها وطيرها ومياهها فى أحاسيسه ومشاعره، وكأنها تشاركه همومه، وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أَضْحَى التَّنائى بديلا من تَدانينا ونابَ عن طيب لُقْيانا تجافينا
حـالتْ لبُعْدكمُ أيـامُنـا فغـدتْ سودًا وكانت بكم بيضًا لياليـنا
بالأمس كنا وما يُخْشَى تفرُّقُنـا واليومَ نحن وما يُرْجَى تلاقينـا
يا جَنَّةَ الخُلْد أُبْـدِلْنا بِسَلْسلِهـا والكَوْثَرِ العَذْبِ زَقُّومًا وغِسْلينا[1]

والقصيدة تكتظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو الذى دفعه إلى مغادرته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو يسلوه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج قط، وتوفيت سنة ٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها فى تاريخ الشعر العربى وتاريخ المرأة الأندلسية.

---

(١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: نهر فى الجنة. أهل النار.
الزقوم والغِسْلين: طعامان من أطعمة

ابن الزَّقاق[١] اللَّخْمى

هو أبو الحسن على بن إبراهيم بن عطية اللخمى البلنسى المعروف باسم ابن الزَّقاق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسى المشهور ابن خفاجة، رُزق به أبوه فى أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجرى، ويصل بعض مترجميه بين أبيه وبين أسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية فى عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤذنا بمسجدها الكبير. وفى نفح الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيرا جدا وأنه كان صاحب حانوت يكبّ فيه على صناعة الزِّقاق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلاً يشتغل بالآداب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده فى أمير بلنسى ثلاثمائة دينار، فأتى بها إلى أبيه ووضعها فى حجره، وقال له: اشتر بها زيتا، ونظن ظنا أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الزقاق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أى صلة بزِقاق الخمر وأن هذا الأب أوالجد لقب «زقّاقا» لسمنه الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديرانى محققة ديوانه. وعُنى الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شبَّ لزم دروس ابن السيد البطليوسى وعلى يديه درس العربية والآداب. وتفتحت موهبته مبكرا، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء فى بلدته. وامتدح بعض الكبراء من بنى عبد العزيز أمراء بلنسية قديما قبل مولده وبعض القضاة ويحيى بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد على بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلا ما يمدح أميرا أو كبيرا، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مرارا فى شعره من مثل قوله:

أنا من تمنَّته الملوك فلم أَعُجْ منها على ذى طارفٍ وتِلادِ[٢]

فالملوك لزمنه كانت تتمنى أن يصوغ لهم شيئا من مدائحه، وكان يتمنَّع عليهم لإباء نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفى الديوان مراث مختلفة وبينها مرثية حارة فى سيدة

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الزقاق وشعره المغرب ٢/٣٢٣ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفح ٣/١٩٩ و٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديرانى (طبع دار الثقافة بيروت) ومقدمتها له وما بها من مصادر.

(٢) أعج من عاج: التفت. تلاد: قديم ضد طارف.

لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بنجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لهما وعاطفته الأبوية نحوهما بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضوعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفا إلى النشوة بها النشوةَ بالخمر، ومن بواكير غزله قوله فى مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسَ خِدْرٍ ما لها مَغْرِبُ ... أرامةٌ خِدْرُكِ أمْ يَثْرِبُ[1]
ذهبتِ فاستعبر طَرْفى دَمًا ... مفضَّضُ الدَّمْع به مُذْهَبُ
ناشدتُكَ اللَّهَ نسيمَ الصَّبا ... أنَّى استقَرَّتْ بعدنا زينبُ
لم تَسْرِ إلا بشَذَى عَرْفِها ... أولا فماذا النَّفَسُ الطيِّبُ[2]
إيهِ وإن عذَّبَنى حُبُّها ... فمن عذابِ النفسِ ما يَعْذُبُ

وتتضح فى هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التى أشار إليها أبو الوليد الشقندى فى بيانه براعةَ الأندلسيين فى الشعر، وهى أن ابن الزقاق يتناول فى أشعاره الصور والأخيلة التى تداولها الشعراء قبله مرارًا وتكرارًا حتى غدت كالثوب الخلَق البالى، فإذا هو يبثُّ فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغربا فى ذلك أحسنَ إغراب وأطرفه، على نحو ما يتضح فى تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبته فى البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تنى طالعة فى خدرها مشرقة، ويناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبته؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل فى النسيم ذاته بدليل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشذى، ويقول:

سَلِ الرِّيح عن نَجْدٍ تخبِّرْك أنها ... معطَّرةُ الأنفاس مُذْ سكنتْ نَجْدا
وأنَّ الغَضَا والسِّدْرَ مذ جاورتْهما ... بِطِيبِ شَذاها أشبها البانَ والرَّنْدا

فصاحبته منذ سكنت نجداً أحالت الريح فيها إلى أنفاس معطرة، بل لقد أحالت الغضا والسدر من أشجار البادية العادية إلى أشجار البان والرند التى طالما ذكرها الغزلون واستدارت من حولها فى أخيلتهم هالات الجمال لمحبوباتهم. ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه:

---

(١) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يثرب: المدينة.
(٢) شذى العرف: رائحة الطيب العطرة.

ولقد مررتُ على الكثيب فأَرْزَمَتْ ... إبِلِى ورجَّعتِ الصَّهيلَ جيادى[١]
ما بين ساحاتٍ لهم ومعاهدٍ ... سُقِيتْ من العَبَرات صَوْبَ عِهاد[٢]
والوُرْقُ تهتف حولهم طربًا بهم ... وبكل مَحْنِيةٍ ترنُّم شادى[٣]

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصواحبه وراء الكثيب وحوله، حتى الإبل جمدت فى مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهى لا تريد أن تبرحه. ويدعو لساحاتهن ومعاهدهن أن تظل تُسْقَى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنينه لفراق صواحبه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لهن طربا. وتكثر فى غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله فى وصف دقة الخَصْر:

أسائلها أين الوشاحُ وقد أتتْ ... معُطَّلةً منه معطَّرةَ النَّشْرِ
فقالتْ وأومَتْ للسِّوار نقلتُه ... إلى مِعْصَمِى لما تقلقل فى خَصْرِى

وقوله:

وقفتُ على الربوع ولى حنينٌ ... لساكنهنَّ ليس إلى الرُّبوعِ
ولو أنى حَنَنْتُ إلى مَغانى ... أحِبَّائى حَنَنْتُ إلى ضُلوعى

وقوله:

تحاذرُ من عمود الصبح نورًا ... مخافةَ أن يُلِمَّ بنا افتضاحُ
ولم أر قَبْلَها واللَّيْلُ داجٍ ... صَباحًا بات يَذْعَرُهُ صَباحُ

والتعبير عن تحول الخصر بنقل السوار إليه تعبير طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعا لمحبوباته، وتصويره لما جال فى نفس صاحبته من خوف بل من ذعر حين أخذت تتفلّت فى الأفق تباشير الصباح، ويعجب لفزع صباح إنسى من صباح كونى. وقد توفى ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفى للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

---

(١) أرزمت: حنَّت. منه.
(٢) العهاد: المطر فى أول الشتاء. وصوبه: الساقط
(٣) الورق: الحمام. مَحْنية: منعطف.

أبو جعفر[1] بن سعيد وحَفْصة الرَّكونيَّة

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة فى إقليم غرناطة نُسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة فى نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الربع الأول من القرن الخامس الهجرى استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها فى نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة فى الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولائه لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبى جعفر أحمد وزيرا له يدبر معه شئون القلعة، وكان شاعرا وفى ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب لهو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهوه مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولاءها له رأيناه يفد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مدائحه. وولّى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبى سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للآداب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيرا أديبا من أهلها يستعين به ووُصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستعفيه، فأبى، وتقلد وزارته.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب وثراء هى حفصةِ الرَّكونيَّة، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعُنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعا مكانة رفيعة فى بلدتها، ويبلغ من مكانتها أن تفد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تنشده متلطفة:

يـا سيِّـد النـاس يـامن ... يؤمَّـل النـاسُ رِفْـدَهْ
امـنُـنْ عـلىَّ بِـطِرْسٍ ... يكـون للدَّهـر عُـدَّه
تـخطُّ يُـمْـنـاك فـيـه ... الـحـمـدُ لله وَحْـدَه

مشيرة بالشطر الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب

---

(١) انظر فى ترجمة أبى جعفر بن سعيد وشعره المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفح ١٧٣/٤ - ٢٠٤. وراجع فى ترجمة حفصة وأشعارها المغرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ و ١٦٦/٢ والمطرب ص ١٠ والإحاطة ٤٩١/١ وانظر ص ٢٢٠ والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٠ والنفح ١٧١/٤ - ١٧٩.

بخط يده فى رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستنشدها من شعرها وأنشدته ما زاده إعجابا، ويبدو أن ابنه عثمان الذى تولى غرناطة بعد ذلك رآها حينئذ وبهره جمالها. فلما ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبى جعفر، ولابد أنه عرف ما كان قد انعقد بينهما من حب وهو ليس حب مجون، بل حب طهارة وعفاف على نحو ما عُرف عن فتيات الأندلس وسيداتها من تحرر ومن لقاءات بينهن وبين الشعراء فى قصورهن، وفى الحدائق والرياض، إذكن أحيانا يمضين فيها بعض الليالى مع من يهواهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة فى بستان بمتنزه يسمى «حَوْر مؤمّل» عبقة فى نفسه حتى ليكتب إليها:

رَعَى الله ليلا لم يَرُحْ بِمَذمَّمٍ ... عشيَّة وارانا بحَوْرِ مؤمَّلِ
وقد خفقتْ من نَحْوِ نجدٍ أَريجةٌ ... إذا نفحتْ هَبَّتْ بريَّا القُرُنْفُلِ
وغرِّد قمرىٌّ على الدَّوْح وانثنى ... قضيبٌ من الريحان من فوق جدْولِ

فهو يدعو لليل الذى نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التى تحيى القلوب أن يسبغ الله دائما عليه رعايته. وتجيبه:

لعمرك ما سُرَّ الرياضُ بوصْلِنا ... ولكنَّما أَبْدَتْ لنا الغِلَّ والحسَدْ
ولا صفَّق النَّهْرُ ارتياحًا لقربنا ... ولا غرَّد القُمْرِىُّ إلا لِما وجَدْ

وكأنها تحدث عن حسد الناس لها وأنهما لن يتركوهما ينعمان بحبهما، ويقطفان من أزهاره ما يعنّ لهما وما يمتعان به روحاهما، واتصل بينهما الحب واللقاء فكتبت إليه وقد استبطأت لقاءه:

أزورُك أم تـزورُ فإنَّ قلبى ... إلى مـا تَشْتهى أبدًا يميـلُ
فعجِّـلْ بالجـواب فما جميـلٌ ... أَنـاتُكَ عن بُثَيْنَـةَ يـاجميـلُ

وهى تشير إلى حب جميل لبثينة حبا عذريا شاع ذكره فى بوادى نجد والحجاز لعصر بنى أمية. وأجابها مصورا ولعه بها وتوقيره لها:

أُجِـلُّكُمْ مـادامَ بـى نـهـضـةٌ ... عن أن تزوروا إن وجدتُ السَّبِيلْ
مـا الـرَّوْضُ زوَّارا ولكنمـا ... يَـزُورُهُ هَبُّ النسيمِ العَليـلْ

فالروض لا يزور ومثله الفاتنة التى ملكت قلب صاحبها وخلبت لبه، وإنما يزوره

النسيم العليل يستشفى بشذاه وأريجه. ويبدو فى أشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم يدع فيه مكانا لسواه حتى لتنشده ملتاعة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غَيْرتها عليه:

أغار عليكَ من عَيْنِى وَمِنِّى ومنك ومن زَمانك والمكانِ
ولو أنى خبأتُكَ فى عيونى إلى يوم القيامةِ ما كفانى

فهى تغار عليه غيرة لا تماثلها غيرة، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيطه به من زمان ومكان، وتقول لو أنها خطفته ووضعته وراء جفونها فى عيونها إلى يوم القيامة ما كفاها. وبينما هى تنعم بهذا الحب مع أبى جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب السلطان فى غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقهما المفروش بالورود والرياحين، وتخشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه فى يوم عيد كاتبة إليه:

يـاذا العُلا وابنَ الخَليـ ـفةِ والإمـامِ المُـرْتَضَى
يَهْنِيـكَ عِيدٌ قـد جَـرَى منـه بما تَهْـوَى القَضَـا
وافـاك من تَهْـواه فى طَـوْع الإجابـة والـرِّضـا

ويمتلىء قلب عثمان على كل من العاشقين موجدة وغيظا، وتزيده الوشاياتُ موجدة على موجدة وغيظا على غيظ، إذ يقال له إن أبا جعفر قال لحفصة عنه: ما تحبين فى ذلك الأسود - وكان لون بشرته مائلا إلى السواد - فأسرَّها فى نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فقُلْ لحريصٍ إذْ يرانى مقيَّدًا بِخدْمته لايُجْعَلُ البازُ فى القَفَصْ

وواتت عثمان الفرصة للانتقام، فإن أخا أبى جعفر عبد الرحمن فرَّ إلى ابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس على الموحدين، ويبدو أن أبا جعفر فكر فى الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقُتل صبْرًا فى مالقة سنة ٥٥٩ للهجرة. وبكتْه حفصة طويلا وندبته ندبا حارًّا ولبست عليه السواد، وهجرت غرناطة لغريمها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدين يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها فى قصره معلمةً لفتياته، وتظل معززة مكرمة فى عاصمة الموحدين إلى أن لبت نداء ربها سنة ٥٨٦ للهجرة.

ابن خاتمة[١]

هو أبو جعفر أحمد بن على بن خاتمة الأنصارى المريّى، ولد فى نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفى سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عاما. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن فى نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم فى مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقا فى الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوى، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى فى أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانعقاد صلات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمير غرناطة، ولعله عمل كاتبا مدة فى دواوين المرية بلدته التى كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يُذْكَر فى ترجمته أنه تخلّى عن الكتابة، حتى إذا طُلب إليه أن يعود إليها أنشد:

تقضَّى فى الكتابة لى زمانٌ كشأْنِ العَبْدِ ينتظرُ الكتابه

وكتابة العبد التى يشير إليها هى أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسَّطا، فإذا أدّاه صار حُرًّا، وهو يقول إننى قضيت فى الكتابة زمانا غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل فى الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استُعْفى منها فأعفى، وبذلك رُدَّت إليه حريته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبدا. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم الأوائل كما يتضح فى كتابه: «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد» وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذى اجتاح المرية فى عامى ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفى أسبابه. وله فى التاريخ الأدبى كتاب مزية المريَّة على غيرها من البلاد الأندلسية، وله فى اللغة كتاب سماه: «إلحاق العقل بالحس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس» وكتاب

---

(١) انظر فى ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ١/٢٣٩ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت - رقم ٢٠ ودرة الحجال لابن القاضى (طبع الرباط) ١/٤٠ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص ٧٢ ونفح الطيب فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجعْ دراسة عنه للمستشرقة الإسبانية سوليداد خيبرت فى كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكى (طبع دار المعارف) ص ٩٧.

«إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السؤّال». وله فى الأدب رسالة صغيرة فى «الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل» وكتاب «رائق التحلية فى فائق التورية» وليس دراسة فى التورية وإنما هو أشعاره الذى صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

وديوان ابن خاتمة فى نحو مائتى صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم فى المدح والثناء، وقسم فى التشبيب والغزل، وقسم فى الملح والفكاهات، وقسم فى الوصايا والحكم، ونبذة كبيرة من الموشحات استغرقت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو فى نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشعر منذ أول قصيدة نقرؤها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية فى الحب، إنما هى محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتا تتحدث عن الحب حديثا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم فى هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربى، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أسماء المواضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تهبُّ نُسَيْماتُ الصَّبا من رُبَى نَجْدِ ... فيَنْفَحْنَ عن طيب ويَعْبقن عن نَدِّ[1]
وما ذاك إلا أنهنَّ يَجُلْنَ فى ... معاهدنا بين الأُثَيْلات والرَّنْدِ[2]
معاهدُ نهواها وتَهْوى لقاءنا ... بها قد مضى حكمُ العفاف على الوُدِّ
وفي القُبَّةِ البيضاءِ بيضاءُ لو بدتْ ... لشمس الضحى يوما لحارتْ عن القَصْد[3]
تطلَّعُ عن صُبْحٍ من الوجه نَيِّرٍ ... وتَغْرُبُ عن ليلٍ من الشَّعْر مُسْوَدِّ

ونسيج الصياغة فى الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعانى والصور مكررة معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقا جديدا، ودائما الخد كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعِقْد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة صاحبته تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضّبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو من أنبه الشعراء فى زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال فى كثير من جوانبه إلى

---

(١) الند: عود عطر الرائحة. ومثلها الرند وهو شجر طيب الرائحة.
(٢) الأثيلات تصغير الأثلات: من أشجار البادية.
(٣) حارت: رجعت.

صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر فى جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجمل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زارتْ على حَذَرٍ من الرُّقباءِ ... واللَّيْلُ ملتفٌّ بفَضْلِ رِداءِ
تَصِلُ الدُّجى بسواد فَرْعٍ فاحمٍ ... لتزيد ظلماءً إلى ظَلْماء
فوَشَى بها من وجهها وحليِّها ... بَدْرُ الدُّجَى وكواكبُ الجوزاءِ
أقسمتُ لولا عفَّةٌ عُذْرِيَّةٌ ... وتُقًى علىَّ له رقيبٌ رائى
لنَقَعْتُ غُلَّةَ لَوْعتى بِرُضَابِها ... ونضحتُ وَرْدَ خدودها ببكائى

ومع ذلك فإننا نشعر بغير قليل من التكلف فى المقطوعة على نحو ما نرى فى الشطر الثانى من البيت الثانى، والصور فى البيت الثالث متراكمة، وقسمه الذى مهَّد به لعفته وتقاه الذى يراقبه فى حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد فى الغزل. ويخف هذا التكلف فى موشحاته بحكم القصر الشديد فى شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هلهلة النسيج التى تلاحظ بوضوح فى كثير من أبيات شعره.

٢

شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة فى سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومتنزهاتها، وهى طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بمفاتنها ومشاهدها دائما باثين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفا بها ما مرَّ بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضا كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر، ونظن ظنا أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذى ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائما على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقرونا بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيرا ما يسوقون ذلك فى مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر فى قسمين متقابلين كما صنعنا فى حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما

ممتزجان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنهما معا. وقد يكون من الطريف أن نلتقى عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى تلك الديار بمقطوعة له فى وصف نخلة ببستان قصره فى قرطبة المسمى منية الرُّصافة، وهى تمضى على هذا النمط [١]:

تبدَّتْ لنا وَسْطَ الرُّصافة نخلةٌ ... تناءتْ بأرض الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ
فقلتُ: شَبيهى فى التغرُّب والنَّوَى ... وطولِ التنائى عن بنىَّ وعَنْ أَهْلِى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ فى الإقصاء والمُنْتَأَى مثلى

وكأن هذه النخلة رمز العرب هناك، وكأن هذه القطعة الشعرية أيضا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين مبثوث فى هذه النخلة الغريبة التى نقلها العرب إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون فى وصف الطبيعة وسكبوا عليه من بيئتهم ومشاعرهم وأخيلتهم مابث فيه الحياة والحيوية على نحو ما نجد فى هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاص لما يستشعره الشاعر الأندلسى من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان. ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون فى الخمر وخاصة أبا نواس، وممن حاول محاكاته مبكرا يحيى الغزال الذى ترجمنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبى نواس تصور مغامرة له فى حان من حانات الخمارين وفيها يقول [٢]:

ولما أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّهُ ... فثابَ خفيفَ الروح نحو ندائى
فقلتُ أَذِقْنِيهـا فلما أذاقهـا ... طرحتُ عليه رَيْطَتِى ورِدَائى [٣]

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجد، فكثير من شعر الخمر - لا فى الأندلس وحدها بل فى كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبى نواس على سبيل الفكاهة فى المجالس، ومثل ذلك ما يقال فى وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجمهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه

---

(١) الحلة السيراء ١/٣٧.
(٢) الديوان ص ٤٣.
(٣) الريطة: الثوب الرقيق تحت الرداء.

الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح فى قطع مفازة ليلا[١]:

ومخـوفَـةٍ تَنْفِى مخـافتُهـا نومَ الفتى ذى المِرَّةِ النَّدْبِ[٢]
للجنِّ فى أَجْـوَازِهـا لَغَطٌ باللَيلِ مثلُ تنازعِ الشَّـرْبِ
وتَرَى بها جُونَ النَّعام إذا أَشْرَفْن كالمَهْنُوءَةِ الجُرْبِ[٣]

وهو يصف سُرَى الليل فى فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضى. ويستلهم ما كرره طويلا ذو الرمة فى وصف الفلوات ليلا وعزيف الجن بها الذى يشبه كما يقول عباس بن ناصح لغط الشَّرْب، ويشبِّه ما بها من النعام الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسى فى القرن الثالث الهجرى وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذى الرمة. ويقول ابن عبد ربه فى وصف نهار ممطر[٤]:

نهارٌ لاح فى سِرْبالِ ليلٍ فما عُرِفَ الرَّواحُ من البُكورِ
وعَيْنُ الشمس تَرْنُو من بعيدٍ رُنُوَّ البِكْر من خَلْف السُّتورِ

فالسحب منعقدة فى السماء والجو مظلم، ولا يدرى ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه باكرون أو مبكرون صباحا قبل طلوع الشمس أو هم رائحون أو راجعون، وأحيانا تتراءى عين الشمس رانية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفى وراء السحب اختفاء الفتاة الرانية خلف الستور خجلا واستحياء. ونتقدم فى القرن الرابع الهجرى ونلتقى بيحيى بن هذيل وله أشعار كثيرة فى الربيع وأزهاره. وله فى وصف حمامة وأنينها محزونةً لفراق صاحبها أو هديلها[٥]:

ومُـرنَّةٍ والـدَّجْنُ يَنسِجُ فَـوْقها بُـرْدَيْنِ من طَلٍّ ونَـوْءٍ باكِ[٦]
مالتْ على طَىِّ الجناح وإنما جَعَلَتْ أريكتَهـا قضيبَ أراكِ[٧]
وتـرنَّمتْ لَحْنَيْنِ قـد حلَّتْهمـا بِغِنـاء مُسْمِعَـةٍ وأنَّـةِ شـاكِ
ففقدتُ من نفسى لفرطِ تلهُّفى نَفَسَ الحياة وقلتُ من أبكاكِ

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجا فوقها

---

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.
(٢) ذو المرة: القوى الشجاع. الندب: الماضى.
(٣) جون: سود. المهنوءة: الإبل المطلية بالهناء وهو القطران.
(٤) الذخيرة ٧٧٩/١.
(٥) الذخيرة ٣٤٦/٣.
(٦) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء. النوء: المطر.
(٧) الأريكة: المقعد. قضيب: غصن.

رداءين من طل ومطر تذرفه السحب، وهى محزونة قد مال رأسها على طى الجناح متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعدًا، وشجاها فراق صاحبها فهى تترنم بغناء ممزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه ويملؤه تلهفا لرؤية صاحبته حتى لكأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكى من حُرَق هواه بصاحبته، ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن فى الهوى سواء. وتكثر أشعارهم فى الأزهار، وكثيرون منهم يردون على ابن الرومى فى تفضيله النرجس على الورد، ولسعيد بن فرج فى الرد عليه قصيدة يقول فيها:[١]

أزعمت أن الوَرْدَ من تفضيلهِ ... خَجِلٌ وناحلُه الفضيلةَ عانِدُ
إن كان يَسْتحيى لفضل جَمالِه ... فحياؤُهُ فيهِ جمالٌ زائدُ

فهو يجعل خجل الورد لاحمرار وجنته من جوهر حسنه يزيده جمالا على جمال، فهو ليس احمرارا ولا خجلا عارضا أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونزل الرمادى ضيفا على صَحب له فى مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة، وكان الوقت شتاء، وقدموا له احتفالا به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجّانة فى الجنوب الشرقى، فتعجب من وجود الورد فى وادى آش شتاء، فقالوا له إنه من بجّانة، فأخلد إلى الصمت ولم يلبث أن لثَمها وأنشد[٢]

يا خُدودَ الحُورِ فى إخْجالها ... قد علتْها حمرةٌ مكتسبهْ[٣]
اغتربنا أنتِ من بجّانةٍ ... وأنا مغتربٌ من قُرْطبه
واجتمعنا عند إخوانٍ صفًا ... بالنَّدَى أموالُهم مُنْتَهَبه
إنَّ لَثْمى لك قُدَّامَهم ... ليس فيه فِعْلةٌ مستغربَهْ
لاجتماعٍ فى اغترابٍ بيننا ... قَبَّلَ المغتربُ المغتربَه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخل السابق إلى النخلة، فهو والوردة متماثلان فى الغربة، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلا عند إخوان صفاء كرام كرما فيّاضا. وكان للمنصور بن أبى عامر الحاجب ثلاث جوارٍ سماهن بأسماء الأزهار: بهارَ ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس

---

(١) الحميدى ٢١٢.

(٢) البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى (تحقيق هنرى بيريس - طبع الرباط) ص ١٢٢.

(٣) الحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

الجزيرى يجعل كلا منهن تخاطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسنها بين الأزهار فى مقطوعات[١] شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق فى نفس قصيدته الفريدة السالفة فى ترجمته[٢]:

وغَمـام هَـطِلٍ شُؤْبُـوبـهُ ... نادمَ الروض فغنَّى وسَقَى[٣]
فى ليالٍ ضلَّ سارى نَجْمِها ... حـائرًا لا يَسْتبين الطُّرُقـا
أوقـد البرقُ لهـا مِصْباحَـهُ ... فانثنى وَجْهُ دُجـاها مُشْـرِقا
وشَدا الرَّعْدُ حنينًا فجـرتْ ... أكؤسُ المُزْنِ عليه غَدَقا[٤]
وغدتْ تَحْنُو له الشمسُ وقد ... ألحفتْه من سَناها نُمْرُقـا[٥]

وقد بثَّ الشريف الطليق فى الغمام الممطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغن وساق فى ليلة داجية، أمسى النجم فيها حائرا لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحه، فاستحال وجهها الداجى المظلم مشرقا مضيئا، وأخذ الرعد يشدو ويغنى، فجرت أكؤس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأصْبَحَ، فرأت الشمس ما أصاب الغصون وبعض الأزهار من المطر المنهمر ليلا، فعطفت على الروض وأشفقت عليه وكسته من سناها وضوئها طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدِّفء.

ولم نقف حتى الآن عند الخمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر ممن سميناهم فى هذا العصر الأموى من أشعار له فى الخمر، غير أنها فى جملتها تعد محاكاة وتقليدا لما قال المشارقة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له فى الخمر أشعارا فيها شىء من الطرافة لملكاته الخيالية الخصبة من مثل قوله فى نفس القصيدة السالفة:

رُبَّ كأسٍ قد كسَتْ جُنْحَ الدُّجَى ... ثـوبَ نـورٍ من سَنـاهـا يَقـقـا[٦]
بتُّ أَسْقيهـا رَشًـا فى طَـرْفِـه ... سِنَـةٌ تُـورث عينـى أرَقـا[٧]
خَـفِيَـتْ للعـين حـتى خِـلْتُهـا ... تـتَّقـى من لَـحْـظِه مـا يُتَّـقَى

---

(١) راجع هذه المقطوعات فى الذخيرة ٤٧/٤ وانظر فى ترجمة الجزيرى الجذوة ٢٦١ والمطمح ١٣ والصلة ٣٥٠ والمغرب ٢٢١/١.
(٢) الحلة السيراء ٢٢٣/١.
(٣) شؤبوب المطر: أول دفعة منه.
(٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.
(٥) النمرق: الطنفسة من القطيفة أوالصوف.
(٦) الأبيض اليقق: الناصع البياض جنح: ظلام.
(٧) الرشأ: ولد الظبية.

أشرقتْ فى ناصعٍ من كفِّه كشُعاع الشمسِ لاقى الفَلَقا[١]
طلعَتْ شمسًا وفُوهُ مَغْرِبًا ويدُ الساقى المحيِّى مَشْرقا
فإذا ما غربتْ فى فَمِهِ تركتْ فى الخدِّ منه شَفَقا

والاستعارات فى الخمرية جيدة، فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشأ عيناه ذا بلتان كأن بهما سنة من النوم، وإن فتورهما وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خمر روحانية، حتى إنها لا تكاد تُرَى، وكأنها تتوارى من لحظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقى مشرقا لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب فى فم الرشأ أو فم صاحبته. وكل ذلك فيه أصداء من خمريات أبى نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقى مشرقا وجعل الخمر حين تغرب فى فم صاحبته تتحول فى الخد منها شفقا. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطليوسى الأرض فى الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول[٢]:

تبدتْ لنا الأرضُ مزهوَّةً علينا ببهجة أثوابها
كأنَّ أزاهِرَها أكْؤسٌ حَوَتْها أناملُ شُرَّابها
كأن الغصونَ لها أذرعٌ تناولها بعضُ أصحابها
كأن تَعانُقَها بالجَنُوب تعانقُ خَوْدٍ لأترابها
كأنَّ تَرَقْرُقَ أجفانها بُكاها لفُرْقةِ أحبابِها

فالأرض قد ازدهت بأبهج أثوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنما أزهارها تحولت إلى كئوس فى أنامل الشاربين تمدها لهم أذرعها من الغصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح الجنوب تعانق الغصون عناق خَوْد أو شابة فاتنة لأترابها الفاتنات، ويتلفت فيجد النَّدَى على وجنات الأزهار وفى عيونها فيقول إن الدموع تترقرق فى أجفانها لفرقة أحبابها. ونلتقى بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموى، وله فى زيارة دَيْر أيام شبابه مع صحبه فى طلب الخمر واللهو:[٣]

ولَرُبَّ حانٍ قد شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ خَمْرَ الصِّبا مُزِجتْ بِصَفْوِ خُمورِهِ
فى فتيةٍ جعلوا الزِّقاق تِكاءَهم مُتَصاغرين تخشُّعا لكبيره

---

(١) الفلق: الصباح.
(٢) ابن الكتانى ص ٤١ والبديع فى وصف الربيع ص ١٤ وانظر فى ترجمة الفقيه الحميدى ٢٠٦ وبغية الملتمس رقم ٧٦٢.
(٣) الديوان ص ١١٥.

يُهْدِي إلينا الرّاحَ كلُّ مُعَصْفَرٍ كالخِشْف خفَّره التماحُ خَفيره[1]
وترنّم الناقوسُ عند صلاتهم ففتحتُ من عيني لرَجْع هديره

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه فى حانة دير اصطفت فيها الدنان وأخذوا يعبُّون من الخمر متخذين من زقاقها متكئا لهم، كأنما يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغلمان الدير يدورون عليهم بكئوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتهم سنة من النوم، ودقّ ناقوس الكنيسة فى الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتانى المتوفى حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموى بالأندلس، وقد خص شعر الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعا تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلهم هذا العصر ونالوا شيئا من الشهرة فيه، وقد بلغوا فى الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط فى الأندلس لعصر بنى أمية - كما قلنا فى غير هذا الموضع - نشاطا عظيما.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ونلتقى فى أوائله بأبى عبد[2] الله محمد بن السراج شاعر بنى حمود بمالقة فى الجنوب الشرقى للأندلس على البحر المتوسط، وكان صَبًّا بمن اسمها حُسْن الورد وله فيها وفى الورد وفى الطائر المسمى حَسُّونًا ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذكرتُ بالورد حُسْنَ الوَرْدِ شِقَّتَهُ حُسْنًا وطِيبًا وعهدًا غير مضمونِ
هيفاءَ لو بعتُ أيامى لِرؤيتها بساعةٍ لم أكن فيها بمَغْبُونِ
فاشربْ على ذكرها خَمْرًا كريقَتِها وخُصَّنى بهواها حين تَسْقِينى

فورد الربيع على أغصانه يذكّره باسم صاحبته وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صِنْوٌ للورد طيبا وحسنا وقصرًا إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأسا يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التى نعم فيها بقربها. وكان يزامله فى مديح بنى حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مُقانا وسنخصه بكلمة ونلتقى

---

(١) معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو صبغ أحمر. ويريد السقاة من غلمان القسس. الخشف: ولد الظبية. خفره: حماه. خفيره: حارسه.

(٢) انظر فى ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة ٨٧٠/١ وما بعدها والحميدى ٥٦ والبغية رقم ١٤٤ والمغرب ٤٣٤/١.

بأبى عامر بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح فى وصف حقيقة الراح الذى ألفه للمعتضد عباد أمير إشبيلية، وله فى وصف الخمر[١]:

خمرةٌ ماتتْ زماناً بحجاب يَحْتويها
لبثتْ فى بَطْنِ أمٍّ غَيَّبَتْها عن بَنِيها
ألْحَدَتْها الدَّنَّ دَهْرًا ثم عاد الرُّوحُ فيها
فانبرى منها سراجٌ رائقٌ مَنْ يجتليها

وهو يقول إنها ماتت زمانا طويلا وراء حجاب دَنِّها أو سِداده، ويزعم أنها ظلت فى بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنيها من الكئوس، وما زالت الدن مدفونة، أو بعبارة أدق ما زالت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قُدِّر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها حين وُضع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره فى إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن اثنين وعشرين عاما، وله كتاب البديع فى وصف الربيع الذى تحدثنا عنه فى الفصل الثانى، وهو أحد مصادرنا المبثوثة فى الهوامش، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين فى صفة الربيع وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون فى الطبيعة مما أتاح له أن يؤلف فيها منتخباته البديعة فى مائة وستين صفحة، مما نظموه فيها. ولابن عمار أبيات فى الخمر والطبيعة اشتهرت قدَّم بها مدحة للمعتضد عباد، وهى تمضى على هذا النمط[٢]:

أَدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرَى والنَّجْمُ قد صَرَف العِنانَ عن السُّرَى
والصُّبْحُ قد أَهْدَى لنا كافورَهُ لما استردَّ الليلُ مِنَّا العَنْبرا
والرَّوْضُ كالحَسْنا كساهُ زهرُه وَشْيًا وقلَّده نَدَاه الجوهرا
روضٌ كأن النهرَ فيه مِعْصَمٌ صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضرا

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنما تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنما ثبت فى مكانه لا يريم، واسترد الليل المرح الذى قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضياءه المشرق، وتبرَّج الروض فى وشيه وجواهره، وكأن النهر الذى يجرى فيه معصم صاف متلألئ بمياهه يشرف

---

(١) الذخيرة ١٠٨/٢.
(٢) الذخيرة ٣٨٤/٢ ومغرب ٣٩١/١.

على بساط بل على رداء سُنْدسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة فى مديح القصيدة ومعانيها مرارا كقوله السالف فى المعتضد:

أنْدَى على الأكباد من قَطْر النَّدَى وألذّ فى الأجفان من سِنَةِ الكَرَى

وكان يعاصره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونمضى إلى عصر المرابطين، ونلتقى بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة فى الأزهار: النرجس وغيره وفى الخمر ومجالسها، ومن قوله فى النارنج[1]:

أجَمْرٌ على الأغصانِ زادتْ نضارةً به أم خدودٌ أبْرَزَتْها الهوادِجُ
كُراتُ عَقيقٍ فى غُصونِ زَبَرْجَدٍ بكفِّ نسيمِ الرِّيح منها صَوالِجُ
نقبِّلها طَورا وطورا نَشُمُّها فهنّ خدودٌ بيننا ونوافِجُ

وابن سارة لا يدرى أيرى على الأغصان جمرا ناضرا أم خدودًا لحسان تومض من بعيد على الهوادج، بل هى كرات من عقيق أحمر تتوّج غصونا من زبرجد أخضر، بل هى صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالى أشجارها حتى إذا تناولها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر، وكأنها طورا خدود وطورا نوافج مسك ذكى الرائحة. ولهم شعر كثير فى الفواكه والثمار نكتفى منه بهذا المثال. ولأبى طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى خمرية نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها[2]:

وخمَّارٍ أنختُ بـه مَسيحى رَخيمِ الدَّلِّ ذى وَتَرٍ فَصيحِ[3]
سقانى ثم غنانى بصوتٍ فداوَى ما بقلبى من جُروحِ
وفَضَّ فَمَ الدِّنان على اقتراحى ففاحَ البيتُ منها طِيبَ رِيحِ
فقلتُ له لِكَمْ سَنَةٍ تراها فقال: أظنُّها من عهد نُوحِ
ولما أن شَدَا الناقوسُ صَوْتا دعانى: أن هَلُمَّ إلى الصُّبوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحى يحسن الغناء على العود بصوت رقيق، وسقاه وغناه وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفضّ له باقتراحه دَنًّا وراء دن، وسأله عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودقّ الناقوس، فنبّهه إلى الصبوح أو

(١) الذخيرة ٨٤٠/٢ ومغرب ٤٢٠/١.
(٢) الذخيرة ٩١٨/١ والمغرب ٣٧٢/٢.
(٣) رخيم: رقيق.

شُرْبها فى الصباح. ولابن الزقَّاق يصف أمسية وقد غربت الشمس وخلَّفت وراءها على أفق السماء الغربى الشفق البهيج[١]:

وعَشِيَّـةٍ لبستْ رِداءَ شَقِيقِ ... تَـزْهُـو بلونٍ للخـدود أَنيقِ
أبقتْ بها الشمسُ المنيرةُ مثلَما ... أبقى الحياءُ بِوَجْنَةِ المعشوقِ
لو أستطيع شربتُها كَلَفًا بهـا ... وعدلتُ فيها عن كُئوسِ رَحِيقِ

وهو يتصور العشية كأنما أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداء أو كأنما اكتست بحمرة الخدود الفاتنة أو كأنما خلَّفت الشمس المضيئة عليها ما يخلِّفه الخجل على وجنة المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشية وما يلابس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التى تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكئوس من رحيق الخمر، حتى ليتمنى - لو استطاع - أن يشربها هانئا بها هناءة ما بعدها هناءة. وابن الزقاق ينتشى دائما بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمريات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقا وسنخصه بكلمة عما قليل.

ونظل فى عصر الموحدين نلتقى بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلابة، وفى مقدمتهم الرصافى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادى الكبير الذى يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلا[٢]:

ومهدَّلِ الشَّطَّيْنِ تحسب أنَّه ... مُتَسَـايِلٌ من دُرَّةٍ لصَفَـائـهِ
فاءتْ عليه معَ الهَجِيرَةِ سَـرْحَةٌ ... صَدِئتْ لفَيْئَتِها صَفِيحةُ مائهِ[٣]
وتراه أزرقَ فى غِلالة سُنْدسٍ ... كالدَّارعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لِوَائهِ

فالنهر تتهدل على شطيه أغصان الأشجار، وهو يجرى تحتها صافيا متلألئا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنما ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهى صورة بديعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له مع حِفافيه من النباتات والزروع كأنما يرتدى غِلالة سندسية، وأيضا تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة

---

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٣٣٤/٢.
(٢) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٥١٤/٢.
(٣) فاءت سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلا بلوائه. والرصافى لا يبارى فى روعة تصاويره، وله يصف أمسية قضاها مع بعض رفاقه منتشيا بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول[١]:

وعَشِيٍّ رائقٍ منظرُهُ ... قد قطعناهُ على صِرْفِ الشَّمولْ[٢]
وكأنَّ الشمس فى أثنائهِ ... ألصقتْ بالأرض خَدًّا للنزولْ
والصَّبا تَرْفَعُ أذيالَ الرُّبَى ... ومُحَيَّا الجوِّ كالسَّيف الصَّقيل
حبَّذا منزلُنا مُغْتَبَقًا ... حيث لا يُطْرِبُنا غيرُ الهَدِيل
طائرٌ شادٍ وغُصْنٌ مُنْثَنٍ ... والدُّجَى يَشْرَبُ صَهْباءَ الأصيل[٣]

وهو يقول إنه ظل فى هذه الأمسية يتمتع بشراب الخمر الصافى وبمنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلصق بها خدها إعزازا ومحبة، ونسيم الصَّبا العليل يحرك النباتات والغصون أو كما يقول أذيال الربى والمرتفعات، ويثنى على منزلهم واغتباقهم أو احتسائهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمِّله من أنغامه وأشجانه. ويُبَلْور روعته بالمنظر فى طائر شاد وغصن منثن، ويحلق خياله، إذ يجعل الدجى ينتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل ورحيقه الهنىء. وكانوا كثيرًا ما يتنزهون فى الأنهار والخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشرعة والأخرى ذات المجاديف، وأحيانا كانوا يُجْرون فيها سباقا على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن على بن لبَّال قاضى شَريش عن أحد هذه السباقات فى نهرها قائلا[٤]:

بنفسىَ هاتيك الزوارقُ أُجْريتْ ... كحَلْبَةِ خَيْلٍ أولًا ثم ثانيا
وقد كان جِيدُ النَّهْر من قبلُ عاطلا ... فأمسى بها فى ظُلْمة الليل حَاليا
عليها لزَهْرِ الشَّمْع زُهْرُ كواكبٍ ... تُخَالُ بها ضِمْنَ الغَدِير عَوَاليا[٥]
وربَّ مُثارٍ بالجناح وآخرٍ ... برجلٍ يحاكى أرْنبًا خاف بازِيا

وهو يقول إن الزوارق أُجريت فى النهر على دفعات تزينها شموع أصبح بها جيد النهر

---

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.
(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.
(٣) الصهباء: الخمر.
(٤) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر فى ترجمة ابن لبال وشعره المطرب ص ٩٧ والمغرب ٣٠٣/١ والتكملة ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩ - ؛ سنة ٥٨٣.
(٥) العوالى: الرماح. زُهْر جمع أزهر: مشرق مضىء.

حاليا بعد أن كان عاطلا من الحلى والزينة. ويخال الشموع فى النهر كأنها رماح مشرعة، بينما الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنما هى أرانب تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سفر، وسنخصه بكلمة. ونلتقى بأخرة من أيام الموحدين بالهيثم بن أبى الهيثم حافظ إشبيلية بل الأندلس جميعها فى عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذى الرمة الشاعر الأموى، ومن عجائبه أنه كان يملى على شخص شعرا - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا، وكل ذلك يمليه ارتجالا دون توقف، وله فى فرس أصفر[١]:

أطِرْفٌ فات طَرْفى أم شِهابُ ... هفا كالبرق ضَرَّمه التهابُ[٢]
أعارَ الصُّبْحُ صَفْحتَه نِقابًا ... ففرَّ به وصَحَّ له النِّقابُ
فمهما حُثَّ خال الصُّبحِ وَافَى ... ليطلب مااستعار فما يُصابُ
إذا ماانْقَضَّ كلَّ النَّجْمُ عنه ... وضَلَّتْ عن مَسالكه السَّحابُ

وللأندلسيين شعر كثير فى وصف الخيل لأنهم كانوا يحاربون عليها دائما، وكانوا يعقدون أحيانا بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدوا سريعا كأنه يبارى به الرياح، فيقول أهذا طِرْف أى حصان أو هو شهاب سقط من أحد أركان السماء، وكأنه برق مضطرم لهيبا. ويظن كأن الصبح أعاره نقابا أصفر، ففرَّ به، وهو دائما لا يتوقف كأنه يظن الصبح فى إثره يطلب نقابه الذى اقترضه منه. ويقول إنه إذا انقضَّ وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضلَّت السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله[٣]:

أدِرْها فالسماءُ بدت عَروسًا ... مضمَّخَةَ الملابس بالغَوَالِى[٤]
وخَدُّ الروض خفَّره أصِيلٌ ... وجَفْنُ النهرِ كحِّلَ بالظلال
وجِيدُ الغُصْنِ يُشْرف فى لآلٍ ... تضيىءُ بهنَّ أكنافُ الليالى

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الغبوق المسائية، فالسماء قد بدت عروسا

---

(١) الرايات ص ٤٧ وانظر فى الهيثم وترجمته وشعره المغرب ٢٦٣/١ واختصار القدح المعلى ص ١٥٨أ والتكملة ص ٧١٦. توفى سنة ٦٣٠.
(٢) طرف بكسر الطاء: حصان. هفا: أسرع.
(٣) اختصار القدح المعلى ص ١٤ وانظر فى ترجمة ابن طلحة أيضا المغرب ٣٦٤/٢ والتحفة رقم ٩٦.
(٤) الغوالى: جمع غالية: المسك.

مبتهجة مضمخة أو معطرة بالمسك فى منظر الروض البهيج، وكأنما سكب الأصيل على خد الروض حياء وخفرا فاصفرَّ لونه، بينما كُحِّلَ جَفْن النهر بالظلال، وقد أضاءت على جيد الغصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالى المظلمة.

ويلقانا مَرْج الكُحْل: محمد بن إدريس الذى نشأ بائعا متجولا فى الأسواق يتعيش ببيع السمك ثم ترقت به همته إلى الأدب قليلا قليلا - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم الشعر ثم ارتفعت فيه طبقته، وله خمرية يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمر يقول فيها[١]:

عَرِّجْ بمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأعْفَرِ ... بين الفُرات وبين شَطِّ الكَوْثَرِ[٢]
ولْتغتبِقْها قَهْوةً ذهبيةً ... من راحتَىْ أَحْوَى المراشفِ أَحْوَرِ[٣]
والروض بين مُفَضَّض ومذهَّبٍ ... والزَّهْرُ بين مُدَرْهَمٍ ومُدَنَّرِ[٤]
والوُرْقُ تَشْدُو والأراكةُ تنثنى ... والشمسُ تَرْفُلُ فى قميصٍ أَصْفَرِ[٥]
ما اصفرَّ وَجْهُ الشمسِ عند غروبها ... إلا لفرقة حُسْنِ ذاك المنظرِ

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكثيب المشرب بحمرة فى تلك الجنَّة البعيدة بين الفرات والكوثر ليتمتعا هناك بالغَبوق أو خمر المساء، وبمناظر الأزهار المفضضة والمذهبة، والورق أو الحمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكة تنثنى، يثنيها النسيم العليل والشمس تتبختر فى قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى المتطبب فى خاتمة موشح له يصور شرب الخمر والصباح يطل على الطبيعة[٦]:

فَقُمْ نباكرْها للاصطباحِ
والشُّهْبُ تُنْثَر من خَيْط الصباحِ

---

(١) مغرب ٣٧٣/٢ وانظر فى ترجمة مرج الكحل وشعره أيضا زاد المسافر ص ٢٧ والوافى بالوفيات ١٨١/٢ والتكملة ص ٣٤٤ والاحاطة ٣٤٣/٢ حُمل عنه ديوان شعره وتوفى سنة ٦٣٤.

(٢) منعرج الكثيب الأعفر: طريق الكثيب المخالط لونه حمرة. الكوثر: نهر بالجنة ولعله يريد دجلة.

(٣) القهوة: الخمر. اغتباقها: شربها فى المساء. المراشف: الشفاه.

(٤) المدرهمة: الفضية من الدرهم. والمدنرة: الذهبية من الدينار.

(٥) ترفل: تتبختر.

(٦) مغرب ٢٨٢/١ وانظر فى ترجمة أبى الحجاج وشعره أيضا اختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ١٦١.

والقُضْبُ ترقصُ فى أيدى الرِّياحِ

على غنـاء الحمـامِ والكاسُ ذاتُ ابتسامِ
والـظلام قـتـيـلٌ والصُّبْحُ دامى الحسامِ

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامى لإحدى موشحات أبى الحجاج لنشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا فى حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت فى أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هى نفسها أغراض الموشحات ولهم فيها ما لا يحصى من الأخيلة البديعة، على شاكلة ما نرى فى هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تباشير النهار، فقد جعلها أبو الحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنانير تنثر فى عُرْس والغصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح،والحمام يشدو ويغنى والخمر فى كئوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو الحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامى البديع فالظلام طريح قتيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حمرته القانية تلطِّخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلهما الرصافىّ فى وصف نهر[١]:

ونهرٍ كما ذابتْ سبائكُ فضَّـةٍ حكى بمحانيه انعطافَ الأراقمِ[٢]
إذا الشَّفَقُ استولى عليه احمرارُه تبدَّى خَضِيبًا مثل دامى الصَّوارمِ[٣]
وتحسبه سُنَّتْ عليـه مُفـاضَـةٌ لإرهابِ هَبَّات الرياح النواسمِ[٤]
وتُـطْلعه فى دُكْنـةٍ بعد زُرْقـةٍ ظـلالٌ لأدواحٍ عليـه نَـوَاسم

وهو يجعل ما فى النهر سبائك فضة سائلة، ويشبهه فى انعطافاته يمينا ويسارا بانعطافات الأفاعى، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوَّره سيفا داميا، وسقط عليه الظل فتصوره درعا لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتُحيل لونه داكنا بعد أن كان أزرق صافيا. ويقول إبراهيم[٥] بن سهل الإشبيلى:

الأرض قد لبستْ رداءً أخضرا والـطلُّ ينثرُ فى رُبـاها جـوهـرا

---

(١) أزهار الرياض ٣/٢٢٣.
(٢) الأراقم: الأفاعى.
(٣) خضيبا: ملونا. الصوارم: السيوف.
(٤) سُنت: صُبَّت. مفاضة: درع.
(٥) انظر فى ابن سهل وترجمته وشعره المغرب ١/٢٦٩ واختصار القدح ص٧٣ والفوات ١/٢٣ والمنهل الصافى ١/٥١ وهو يهودى أسلم فى شبابه توفى سنة٦٤٦. طبع ديوانه محققا ببيروت.

فاحتْ فخِلْتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها التُّرْبَ مِسْكًا أذْفَرَا[١]
وكأن سَوْسَنها يصافحُ وَرْدَها ثَغْرٌ يُقَبِّل منه خدًّا أحمرا

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنما الطل ينثر فى رباها كل ما فى حجره من جوهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها مسكا أذفر أو عاطرا، وكأن سوسنها الأبيض الجميل حين يصافح وردها ثغر يقبل خدا ياقوتيا. ويقول أبو الوليد[٢] بن الجنان:

هات المُدامَ وقد ناح الحمامُ على هذا الظلامِ وجيشُ الصُّبْحِ فى الطلَبِ
والسُّحْبُ قد بَدَّدَتْ فى الأرض لُؤْلُؤَها تضمّهُ الشمسُ فى ثَوْبٍ من الذهبِ

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصبح فى إثره، وهو ينسحب بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن التقطت كل هذه اللآلئ ولمّتها أو جمعتها فى ثوبها الذهبى. ولابن خاتمةفى بلبل وردية اللون تغنى فى روض مكتظ بالورود والأزهار[٣]:

ووَرْدِيَّة الجلبابِ أعجبَها الوَرْدُ فغنَّتْ وما بالغانيات لها عَهْدُ
أتتْ وبطاحُ الأرضِ تُجْلَى عرائسًا وفى كل غُصْنٍ من أزاهرِهِ عِقْدُ
وقد أبْدَت الدنيا محاسِنَ وَجْهِهَا فمن زهرةٍ ثَغْرٌ ومن وردةٍ خَدُّ
فغَنَّتْ غناءَ الشَّرْبِ أنْشَتْهُمُ الطِّلا وحَنَّتْ حَنين الصبِّ باح بِهِ الوَجْدُ[٤]

وهو يصور البلبل الوردية قد أعجبها ورد الروض وخلبها، فتغنّتْ له غناء ساحرا لم تعهده الغانيات الجميلات، ويقول إنها أتت الروض فى وقت الربيع، وقد ازدانت بطاح الأرض حتى لكأنها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة - مثل زهرة الأقحوان - ثغر، ومن وردة - وما أكثر الورود - خد. وأسكر البلبل المنظر الرائع فانتشت وغنت وحنت حنين الصب المغرم الولهان. ولابن زَمْرَك فى وصف زهر القَرَنْفُل بجبل الفتح أو جبل طارق[٥]:

---

(١) أذفرا: عطرا.
(٢) راجع فى ابن الجنان وترجمته وشعره المغرب ٣٨٣/٢ واختصار القدح ص ٢٠٦.
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) الطلا: الخمر.
(٥) أزهار الرياض ٤٠/٢.

رَعَى اللهُ زَهْرًا ينتمى لقَرَنْفُلٍ حكى عَرْفَ مَنْ أهوى وإشراقَ خَدِّهِ[١]
ومَنْبِتُهُ فى شاهقٍ متمنعٍ كما امتنعَ المحبوبُ فى تِيه صَدِّهِ
أميل إذا الأغصان مالَتْ بروضةٍ أعانقُ فيها القُضْبَ شوقًا لقَدِّه[٢]
وأهفو لخفَّاقِ النسيمِ إذا سَرَى وأَهْوَى أريجَ الطِّيب من عَرْف نَدِّهِ[٣]

وهو يدعو لزهر القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكى عرف من يهواها وطيبها، ويقول إن منبته فى أعالى جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب فى صَدِّه وتيهه وخُيَلائه، كما يقول إنه كلما رأى الأغصان فى روضة عانقها شوقا لعناق محبوبه، ويقول أيضا إنه يحنّ إلى خفّاق النسيم مساء يظنه من قِبَل محبوبه، ويهوى أريج الطيب يظنه من أريجه الذكىّ العطر. وحرى بنا أن نلم إلمامات قصيرة بمن وعدنا بالحديث المجمل عنهم من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلى بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سفر.

عبادة[٤] بن ماء السماء الأنصارى

هو عبادة بن عبد الله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة الخزرجى أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله ﷺ فى العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتهاء إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف شيئا واضحا عن نشأته إلا ما يذكر مترجموه من أنه تلميذ الزبيدى تلميذ أبى على القالى وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومدح المنصور بن أبى عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائزه، وسُجِّل اسمه فى ديوان الشعراء وأُعليت مرتبته فيه وأُعلى عطاؤه. وتدور الأيام وتكون فتنة قرطبة التى ظلت نحو عشرين عاما، ويعتلى عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب سنة ٤٠٧ ويدور العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤. ولعبادة مدائح فى هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفى مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة فى مديح

---

(١) العرف: الشذا وطيب الرائحة.
(٢) القضب: الغصون.
(٣) سرى: سار ليلا. أريج: فائح. الند: عود طيب الرائحة.
(٤) انظر فى ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها والجذوة ٢٧٤ والمطمح ٨٤ والبغية رقم ١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ٤٢٥/١.

أئمتهم، غير أنهم جميعا لم يكونوا يستظهرون شيئا من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة يمدحه ويسبغ عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهبا فاغتم غما شديدا، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمنه فى قرطبة معللًا ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلكًا سهلًا، فقالت له غرائبه: مرحبًا وأهلًا. ولم يكن شاعرًا فحسب، بل كان أيضًا مؤرخًا أديبًا إذ كان له كتاب فى أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد فى المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا فى حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذى «نهج لأهل الأندلس طريقتها - وكأنها لم تُسْمَع بالأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه». ومر بنا أن مقدَّم بن معافى القَبْرى - وهو عربى - أول من ابتكرها وأن الرمادى الكندى - وهو أيضًا عربى - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجى الأنصارى فأعطاها شكلها النهائى. ومرَّ بنا نقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدى عرب تطويرًا منهم - كما ذكرنا فى حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء فى زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمتانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقى وبجمال الأخيلة، وله مبهورًا بجمال صاحبته وجمال أناملها التى شبهها بالعنَّاب:

سقى الله أيَّامى بِقرطبةِ المُنَى ... سُرورا كرىَّ المُنْتَشِى من شَرابِهِ
وكم مُزِجَتْ لى الراحُ بالرِّيقِ من يَدىْ ... أغرَّ يُرينى الحسنَ ملءَ ثيابه
تعلِّلنى فيه الأمانى بوعدها ... وهيهات أن أُرْوَى بوِرْد سَرابِهِ[1]
سَلِ العَنَم البادى من السِّجْف دَالفًا ... لتعذيب قلبى هل دَمِى من خِضابِهِ[2]

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تُسْقَى سرورا ترتوى به وتنتشى كانتشاء صاحب الخمر من شرابه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يعلل نفسه بلقائها ووعدها، غير أنه كان دائما سرابا لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب

---

(١) الورد: الماء الذى يرده الناس، وقد أضافه إلى السراب تخيلا.

(٢) العنم: الخضاب الأحمر وأراد به الأنامل. السجف: ستر الخيمة بجانب بابها. دالفا: مقبلا.

أناملها البادى من الستر لتعذيب قلبه من دمه، كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق منها بالأنامل، ويقول:

اجْلُ المدامة فهى خيرُ عَروسِ ... تَجْلُو كروبَ النَّفْسِ بالتَّنفيسِ
واستغنمِ اللذاتِ فى عَهْد الصِّبا ... وأوانِه لا عِطْرَ بعد عَروسِ

وهو يتصور المدامة عروسا تهفو لها نفسه، ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهمومها، ويدعو إلى اغتنامها فى عهد الصبا، فهو عهدها، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول العرب: «لا عطر بعد عروس» فالعطر إنما تحتاجه العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما يماثلها تقليدا ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدَّخر المثاقيل الذهبية المائة التى ضاعت منه بمالقة.

عبد[1] الرحمن بن مُقانا

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا، من قرية القُبْذاق من قرى أُشبونة (ليشبونة الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية فى أشبونة وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء فى مدن سواها. ونلتقى به فى أوائل عصر أمراء الطوائف مترددا على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التُجيبى المتوفى سنة ٤٣٠ وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه «جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة». وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسبغوا عليه نوالهم إدريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى أمير مالقة الذى خلف أباه عليها سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخا أن يكفَّ عن تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضى فيها بقية حياته معنيًّا بضيعة له فيها وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغَرْس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرِّف ابن بسام بابن مقانا قائلا: «من شعراء غربنا المشاهير، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرَّف فيه تصرُّف المطبوعين المجيدين فى عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند اكتهاله» وكأن ابن بسام يجعل وفوده على أمراء الطوائف فى أيام

---

(١) انظر فى ابن مقانا وترجمته وشعره الذخيرة ١٠٤٤ والمغرب ٤١٣/١.
٧٨٦/٢ وما بعدها والحميدى ٢٦٠ والبغية رقم

الشباب وحدها، ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخا لا كهلا. وأمُّ قصائده التي طارت شهرتها في الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودي، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلا:

قد بَدَا لي وَضَحُ الصُّبْحِ المبينْ ... فاسْقنيها قبلَ تكْبيرِ الأذِينْ[١]
مُزَّةٌ صافيةٌ مشمولةٌ ... عُتِّقَتْ في دَنِّها بِضْعَ سِنين[٢]
مَعَ فتيانٍ كرامٍ نُجُبٍ ... يتهادَوْنَ رياحينَ المجونْ
وعليهم زاجرٌ من حِلْمهم ... ولديهم قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينْ[٣]
ويُسَقَّوْنَ إذا ما شربوا ... بأباريقَ وكأسٍ من مَعين[٤]

وابن مقانا يتراءى له ضوء الصبح في السحر، فيهتف بالساقي أن يملأ كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مزة الطعم صافية باردة معتّقة، كما يقول إنه يشربها مع فتيان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأرجة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضات البصر فاتنات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصَّبوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله سماء ونجوما ورياضا وأزهارا ويبدع خياله بمثل قوله:

ومصابيح الدُّجَى قد أُطْفِئتْ ... في بقايا من سَواد الليلِ جُونْ[٥]
والثريَّا قد علتْ في أُفْقِها ... كقضيبٍ زاهرٍ من ياسَمينْ
وانبرى جُنْحُ الدُّجَى عن صُبْحِهِ ... كغرابٍ طار عن بَيْضٍ كَنِينْ[٦]
وجَناحُ الجوِّ قد بلَّله ... ماءُ وَرْدِ الصُّبْحِ للمصطبحينْ
والنَّدَى يقطرُ من نَرْجسهِ ... كدموعٍ أسبلتهنَّ الجفونْ[٧]

وهو يقول إن مصابيح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى في بقايا من سواد الليل، وتعالت الثريا في السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك

---

(١) الأذين: نداء الأذان للصلاة.
(٢) مزة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة: باردة.
(٣) قاصرات الطرف: يغضضنَ من أبصارهن. عين جمع عيناء: واسعة العين جميلتها.
(٤) معين: عين جارية.
(٥) جون: سوداء.
(٦) جنح: ظلام. كنين: مستتر.
(٧) أسبلتهن: أرسلتهن.

الياسمين بدوره على التوارى والانطفاء، وأخذ ظلام الليل ينْبرى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، وورْد الصبح بل ماؤه بلّل جناح الجو تحية للمصبطحين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورود وكأنه دموع أسبلتها الجفون. وهى صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكُدْية والشحاذة الأدبية فى الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوّالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجرى فيها من عذوبة وسلاسة وروعة فى الموسيقى والتصاوير.

على[1] بن حِصْن

هو أبو الحسن على بن حصن الإشبيلى، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذه وزيرا له معه، وكان فى ابن زيدون شىء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنَفِس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوهما أحيانا إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديهته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان فى ابن حصن تهور وطيش فزلّت قدمه وأدّياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفاحا للدماء قتَل كثيرين من وزرائه وخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية على بن حصن قائلا عنه: «أحد من راشَ سهام الألفاظ بالسحر الحلال،وشَقَّ كمائم المعانى عن أفتنَ من محاسن ربّات الحِجال، بين طبع أرقّ من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر،وأوسع من الدهر». ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا فى شعره ويعلل ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وينوه بروعة تصاويره، ومن قوله فى إحدى خمرياته الماجنة:

خَضَبَتْ بنانَ مديرها بشُعاعها فِعْل العَرَارة فى شفاه الرَّبْرَبِ

والربرب: القطيع من بقر الوَحْش، يقول إن الخمر خضبت بنان الساقى بشعاعها

---

(١) انظر فى على بن حصن وترجمته وشعره والبغية ص١٤٣ والمغرب ١/٢٥٠. الذخيرة ٢/١٥٨ وما بعدها والحميدى ص٢٩٦

كما يخضب نبات العَرار الصحراوى شفاه قطعان البقر الوحشى. وهى صورة طريفة لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يتراءى لهم فى البقر الوحشى هناك من جمال. ويقول فى خمرية أخرى:

إذا بدتْ لك فى قِطْـ ـعةٍ مـن الـبِـلَّارِ
حسبتهـا شـفقًـا صُـبَّ فى زجـاج نهـار

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تُصَبُّ لا فى زجاج بِلّورى أو مصوغ من بلور بل فى زجاج مصوغ من نهار مضىء. ويخاطب إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمامها والشمس جانحة للغروب:

كأنكِ والشمسَ عند الغروبِ عروسٌ من الحسن منحوتَهْ
غدا النهر عِقْدكِ والطَّوْدُ تاجَـ ـكِ والشمس أعلاه ياقـوتَهْ

فالنهر وما يحفّ به من أزهار عقدٌ نفيس يتألق فى جيد إشبيلية والجبل من ورائها كأنه تاج معقود على رأسها ترصّعه فى أعلاه ياقوتة الشمس البديعة. ومن قوله فى وصف هَديل:

وما هاجنى إلا ابنُ وَرْقاء هاتفٌ على فَنَنٍ بين الجزيرة والنَّهْرِ[١]
مُفَسْتَقُ طـوقٍ لازَوَرْدِيُّ كَلْكَـلٍ مُوَشًّى الطُّلَى أَحْوَى القوادم والظُّهْرِ[٢]
أدارَ على الياقوتِ أجفانَ لؤلؤٍ وصاغَ على الأجفان طَوْقا من التِّبْرِ[٣]
حـديدُ شَبَـا المِنْقارِ داجٍ كـأنَّـهُ شَبَا قلمٍ من فِضَّةٍ مُدَّ فى حِبْرِ[٤]
تـوسَّد من فَـرْعِ الأراكِ أريكَـةً ومالَ على طَيِّ الجناحِ مَعَ النَّحْرِ[٥]
ولمـا رأى دَمْعِى مُـرَاقًـا أرابَـه بُكائىَ فاسْتَوْلَى على الغُصْنِ النَّضْرِ[٦]
وحثَّ جنـاحَيْـه وصَفَّقَ طـائـرا وطارَ بقلبى حيثُ طار ولا أدرى[٧]

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيما يتخيلونه من ترتيل الحمام المبغوم وأنه يبكى

---

(١) ابن ورقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: غصن.
(٢) مفستق طوق: طوقه فستقى اللون. كلكل: صدر. لازوردى: أزرق أو بنفسجى. الطلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم: ريش الجناح الطويل.
(٣) التبر: الذهب.
(٤) شبا: حد سنّ.
(٥) أريكة: منصة، مقعد. طىّ: جانب.
(٦) أرابه: شكّكه وحيره.
(٧) صفق الطائر: حرك جناحيه للطيران.

وينوح محزونا لفراق أليفته، وهو يقول فى مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقا إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة فيرسمها رسما دقيقا، فطوقه فستقى اللون وصدره لازوردى أو أزرق بنفسجى وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤتى عينيه، ومن حولها أهداب ذهبية. وحدُّ منقاره أسود داج كأنه سِنُّ قلم من فضة غُمس فى مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكة منصة، ومال برأسه محزونا على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحسَّ الشاعر أنه - مثله - حزين مهموم لفراق صاحبته فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفاتة فرآه يبكى واحتار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحركهما طائرا، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوّى منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. ومما أعجب به ابن بسام من شعره قوله فى وصف سحابة:

بكرتْ سُحْرَةً قُبَيْلَ الذَّهابِ تَنْفُضُ المِسْكَ عن جَناحِ الغُرابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديما ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأمطارها تنفض المسك الأسود عن جناحه. وفى ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

أميَّة[1] بن أبى الصلت

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشبَّ - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرَّج على أيديهم طبيبا متفلسفا وشاعرا بارعا يَثْقَف الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفى أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحبا والدته، وقد تكون الرغبة فى التزود من علماء المشرق أو الرغبة فى الحج من دواعى تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهدية بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز

---

(١) انظر فى أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء ٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ والتكملة ٢٠٣/١ وتحفة القادم ٣ وابن خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب لابن عذارى ٣١٢/١ والخريدة: قسم شعراء المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١ - ٢٧٠ وتاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٨٠ ومرآة الجنان لليافعى ٢٥٣/٣ وشذرات الذهب ٨٣/٤.

الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠١ هـ.) إذ كان مقصدا للشعراء لما يجيزهم به من الجوائز السنية، وامتدحه مرارا، وظل فى حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة. وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فحين وصل أمية برسالته إليهم زَجُّوا به فى سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة فى أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكبَّ عليها يقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهى مبالغة واضحة. وفى كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرفى صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه فى السجن منوها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو فى سجنه، ويثنى على قصيدتين أرسل بهما إليه فى مديح الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر حينئذ (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) وقد أنشد العماد فى الخريدة قطعة من مدحة لأمية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرفى كما ذكرنا. وعاد إلى المهدية سنة ٥٠٥ فى عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ.) وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتى ذكرهما وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه على أمير المهدية بعده (٥٠٩ - ٥١٥ هـ.) وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر من هيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعُنى فيها بذكر مُدَّاح الأفضل الجمالى وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد فى المغرب: «عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم». ويبدو من هذه العبارة أنه لحَّن هناك لهم أغانيهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتابا فى الموسيقى أهداه إلى الأمير على بن يحيى. وإشادةُ ابن سعيد بصنيعه فى هذا الجانب لها أهمية كبيرة، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جَلَّ قدره عند الحسن بن على خليفة أبيه كما جَلَّ عند أبيه وجده، وظل ينزل هناك منزلة جليلة إلى أن توفى سنة ٥٢٩. وله مصنفات مختلفة فى التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب فى المنطق سماه: «تقويم الذهن» وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهى أهم نص عن شعراء مصر فى فواتح القرن السادس الهجرى، وله أيضا كتاب الحديقة فى شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للثعالبى وكتاب الملح العصرية فى شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد فى النابهين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن العماد فى الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت

فيه إلى أكثر من ثمانين صفحة مهَّد لها بقوله: «كل شعره منقح مستملح، صحيح السبك، محكم الحَوْك، نظيم السلك» وهو موزع بين مديح ورثاء وغزل وهجاء ووصف للقصور والخيل ومن قوله فى الهرمين:

بعَيْشك هل أبصرتَ أعجبَ منظرا ... على طول ما أبصرتَ من هَرَمَيْ مِصْرِ
أنافَا بأعنان السماءِ وأشرفا ... على الجوِّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ[1]
وقد وافيا نَشْزًا من الأرض عاليا ... كأنهما ثدْيانِ قاما على صَدْرِ[2]

وفى هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خمرياته وتصاويره للطبيعة، وتتداول الكتب التى ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مَسْرَبٌ من مياه النيل يصبُّ فى قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمناظرها، وفيها يقول أمية:

لله يومى ببركة الحبَشِ ... والأُفْقُ بين الضياءِ والغَبَشِ
والنيلُ تحت الرياح مضطربٌ ... كصارمٍ فى يَمينِ مَرْتعِشِ[3]
ونحن فى روضةٍ مفوَّفةٍ ... دُبِّج بالنَّوْرِ عِطْفُها ووُشِى[4]
قد نسجتْها يَدُ الربيعِ لنا ... فنحنُ من نَسْجِها على فُرُشِ
فعاطِنى الرَّاحَ إنَّ تاركها ... من سَوْرَة الهمِّ غير مُنْتَعِشِ[5]

وهى نزهة ببركة الحبش فى يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة فى الأبيات بديعة، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف فى يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبدا، وهو وصحبه فى روضة أنيقة وُشيت جوانبها وزينت بالنور، ومدَّ الربيع من تحتهم بساطا سندسيا. وفى هذا الموكب الرائع الذى ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجمالها يسأل صاحبه أن يناوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم فى طوايا نفسه. ويعلن مرارا أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتنّ فى مزجها بالغزل إذ يجتمع عليه صبابته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قامتْ تدير المُدام كفَّاها ... شمسٌ ينير الدُّجَى مُحَيَّاها

---

(١) أناف: ارتفع وأشرف. السماك: نجم نيرٌ.
(٢) النشز: المرتفع من الأرض.
(٣) صارم: سيف.
(٤) مفوفة: مزخرفة.
(٥) سورة: شدة.

للمسك ما فاح من مَرَاشِفها والبَرْقِ ما لاح من ثناياها
غـزالـةٌ أخجلتْ سَمِيَّتهـا فلمْ تشبَّه بها وحـاشاهـا[١]
هَبْهـا لها حُسْنهـا وبَهْجتها فهـل لها خَـدُّها وعَيْنـاهـا

والأبيات تملك القلوب والأسماع بعذوبتها وتمكن ألفاظها وقوافيها فى سياقها، وأيضا برَقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والرِّدف والكثيب والمراشف وما يلمع وراءها من الثغر وصاحبته والشمس، وهَبْ للشمس حسنها وبهجتها فهل لها خدها الجميل وعيناها الفاتنتان. وله وراء ذلك أشعار بديعة.

ابن[٢] خفاجة

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شُقْر بين شاطبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت جزيرة وفى المغرب: أنها «عروس الأندلس المقلدة من نهرها بسلك، المتلفعة من جناتها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمام». وفى هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة فى أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعريا رفيعا بأشعار عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار والمتنبى كما يقول فى مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصورى فى مزج الغزل بالطبيعة وبالشريف الرضى ومهيار فى ذكر الظعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامى، أما المتنبى فيقول إنه تأثر به فى لفّ الغزل بالحماسة. ويقول أيضا فى مقدمة ديوانه إنه ظل فى شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة فى شعره، متغنيا فيه بحب وجدانى وبمتاعه من الخمر والطبيعة الجميلة التى نشأ فى حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق

---

(١) غزالة: يريد صاحبته، وتسمى بها الشمس.

(٢) انظر فى ابن خفاجة وترجمته وشعره الذخيرة ٥٤١/٣ ومابعدها والقلائد ص٢٣١ والمغرب ٣٦٧/٢ والمطرب ص١١١ وابن الأبار فى التكملة (البقية المطبوعة فى الجزائر) ص١٧٥ ومعجم الصدفى ص٥٩ والمطمح ص٨٦ وبغية الملتمس ص٢٠٢ وابن خلكان ٥٦/١ والخريدة ١٤٧/٢ ومقدمة ابن خلدون (طبع نهضة مصر) ص١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د.السيد مصطفى غازى (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية). وراجع ترجمته فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الحادية عشرة بدار المعارف) ص٤٤٤ ومابعدها وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص٢٠٤ ومابعدها.

بضيعة ورثها عن آبائه، وفى الديوان مقطوعة سينية نظمها فى زيارة للمعتصم بن صُمادح دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس فى الديوان وراءها مدحة لا فى ابن صمادح ولا فى غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات فى الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر، ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكأن هذا العصر كان عبئا غليظا على نفسه، كما كان عبئا غليظا على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه فى الترف والمجون، حتى ضاعت طليطلة سنة ٤٧٨. ونظن ظنا أن هذا الحادث الخطير هو الذى جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل فى إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا فى الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابه بهم هو الذى جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء فى ديوانه، ولايلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه فى نفس السنة فينتعش الأمل فى نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر، وتلك هى الفترة الثالثة فى حياته، وفيها ظل يدبج المدائح فى أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلا ذلك - كما يقول فى مقدمة ديوانه - بمديح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاة المرابطين على شرقى الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفى أخيه تميم والى غرناطة ثم مرسية بشرقى الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفى على بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفى أبى بكر بن تيفَلْويت ممدوح ابن باجة. وفى كل هذه المدائح وغيرها فى تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أوعطاء، وإنما كان - كما قال فى مقدمة ديوانه «مصطنعا، لامنتجعا، ومستميلا، لامستنيلا اكتفاء بما فى يده من عطايا منّان وعوارفِ جوادٍ وهّاب». ونظن ظنا أنه عاش فترة فى حياته الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاما، مفكرا فى مصيره وفى متاع الحياة الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفى هذه الفترة نظم طائفة من شعره فى العظة والاعتبار والتوبة والابتهال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعُنى كما يقول فى مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره «إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى» وعُنى بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر فى بعض شعره - تقربا لله ورسوله. وكان فى هذه الفترة الرابعة من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادى بأعلى صوته: يا إبراهيم تموت، فيجيبه الصدى ويخرُّ مغشيا عليه. ويتوفى سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاما.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفد أكثر شعره واشتهر به وصف الطبيعة حتى سماه الأندلسيون الجنَّان نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة، وعلَّل هو نفسه لهذه النزعة فى ص ٢٩٠ بديوانه قائلا: «إكثاره فى شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجَرْية ماء ورنة طائر ما هو إلا [إما] لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطر عليها وجِبلَّة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة وأرض أريضة،[1] فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرِّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ[2] لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع». ومن قوله فى وصف روض صباحا:

وكِمَامةٍ حَدَرَ الصباحُ قِناعَها ... عن صَفْحَةٍ تَنْدَى من الأزهارِ[3]
فى أبْطَحٍ رَضعتْ ثغورُ أقاحِهِ ... أخْلافَ كلِّ غمامةٍ مِدْرارِ[4]
وحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحكٍ ... والطَّلُّ يَنْضَحُ أوْجُهَ الأشجارِ
متقسِّمَ الألحاظِ بين محاسنٍ ... من رِدْفِ رابيةٍ وخَصْر قرارِ[5]

والصور تتراكم فى القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها النَّديَّة وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدارِّ والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، وألحاظه موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار. ويقول فى وصف عشية:

وعَشِيِّ أُنسٍ أَضْجعتْنِى نَشْوَةٌ ... فيه يُمهِّد مَضْجعى ويُدَمِّثُ[6]
خَلَعتْ علىَّ به الأراكةُ ظِلَّها ... والغُصْنُ يُصْغِى والحمامُ يحدِّثُ
والشمسُ تَجْنَحُ للغروب مَرِيضَةً ... والبَرْقُ يَرْقِى والغمامة تَنْفُثُ[7]

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة فى مقعد ممهد لطيف، والحمام يحدِّث والغصن يرهف السمع إليه، والشمس تجنح للوداع وقد اصفرَّ

---

(١) أريضة: كثيرة النبات.
(٢) كلف: هيام.
(٣) كمامة: أكمام وهى جمع كم بكسر الكاف: برعوم الزهرة.
(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلمة
(٥) الردف: العجز بضم الجيم. خصر الإنسان: وسطه. قرار: منخفض من الأرض.
(٦) يدمث: يمهد ويوطأ بتشديد الطاء.
(٧) تنفث: تنفح.

وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشُعَل البرق كأنها رُقَىً تريد أن ترقيها والغَمامة تنفث كما ينفث الراقى فى العقد. ومن قوله فى إحدى خمرياته:

وأراكةٍ ضربتْ سماءً فوقنا ... تَنْدَى وأفلاكُ الكئوسِ تُدارُ
حَفَّتْ بدَوْحتِها مجَرَّةُ جَدْوَلٍ ... نثرتْ عليه نجومَها الأزهارُ
وكأنَّها وكأنَّ جدول مائِها ... حسناءُ شُدَّ بِخَصْرِها زُنَّارُ[1]
زفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ ... تُجْلَى ونُوَّارُ الغُصونِ نِثارُ[2]

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التى جلس مع ندمائه تحتها سماء، ومضى يستتم الصورة، فالكئوس تدار وكأنها النجوم تدار فى الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار كأنه المجرة بما حولها من النجوم، وكأن الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت حزاما إلى خصرها. وهذا زجاج الكئوس يزفُّ المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم، وما النوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقى به المحبون فى هذا العرس الكبير. وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر فى عناصر الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التى يشترك بها مع غيره من العناصر. وتتراكم هذه الأحاسيس فى شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد، وهى ليست كثرة معان إنما هى كثرة تصاوير، وهى ليست عيبا بل هى حسنته وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساسا عميقا، وهو إحساس تفرَّد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعا، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب فى مختلف عصورهم، وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول فى أبى بكر بن تيفلويت والى سرقسطة:

وجَلا الإمارةَ فى رَفيفِ نَضارةٍ ... جَلَتِ الدُّجَى فى حُلَّةِ الأنوارِ
متقسِّمٌ ما بين شمسِ دُجُنَّةٍ ... طلعتْ وبين غمامةٍ مِدْرَارِ
أَرِجَ النَّدِىُّ بذكرِه فكأنه ... متنفِّسٌ عن رَوْضةٍ مِعْطارِ

فهو قد جلا الإمارة فيما يشبه رفيف البساتين من الرى والنضارة، حتى لكأنما أُسبغت على الليل الداجى حلة من الأنوار، وما أروع طلعته كأنها طلعة شمس من دجنَّة مظلمة

---

(١) زنار: حزام يشد فى الوسط. الدراهم والدنانير.
(٢) النثار: ما ينثر على العروس فى الزفاف من

تضيء للأبصار، وكأنما يداه غمامة ما تزال تهمى بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره فى النَّدِىِّ ليملؤه بأريجه العطر، حتى لكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة بالمديح يمزجها برائيه كقوله فى رثاء صديق عزيز:

فى كلِّ نادٍ منك رَوْضُ ثناءٍ ... وبكل خَدٍّ فيك جَدْوَلُ ماءِ
ولكل شخصٍ هِزَّةُ الغُصْنِ النَّدِى ... تحت البُكاء ورَنَّةِ المُكَّاءِ

وهو يقول - مخاطبا صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنينه وانهيار دموعه إلى ما يشبه هزة الغصن الندىّ ورنة طائر المكاء الصغير يبكى أليفته.

ولم نتمثل حتى الآن بشىء من شعر الطبيعة الذى نظمه فى الفترة الأخيرة من حياته، فترة التأمل فى مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مرارا، من الموت والعدم، ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة فى الديوان بأنه قالها فى الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سُراه فى الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائما، وكأنما يصف رحلته الطويلة فى الحياة، ويلتقى فى سراه بجبل ضخم شاهق شامخ ويقيم معه حوارًا ينطقه فيه بما يدور فى نفسه، إذ يقول له: كم آوى إلىَّ واستوطننى من فُتَّاك ونُسَّاك وكم مرَّ بى من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وما كان إلا أن طَوَتْهم يَدُ الرَّدَى ... وطارتْ بهم ريحُ النَّوَى والنَّوائبِ
وما خَفْقُ أَيْكٍ غيرُ رَجْفَةِ أَضْلعٍ ... ولا نَوْحُ وُرْقٍ غيرُ صَرْخة نادبِ
فحتى متى أَبْقَى ويَظْعَنُ صاحبٌ ... أُودِّعُ منه راحلًا غيرَ آيبِ
فسلَّى بما أَبْكَى وسَرَّى بما شَجَى ... وكان على لَيْل السُّرَى خيرَ صاحبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة. وكل شىء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة فى الإحساس بهول هذا المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الحمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل سرَّى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به من تلاحق الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل إلى الدار الباقية.

محمد[1] بن سفر

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين فى المائة السادسة، ويقول ابن الأبار عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول ابن سعيد فيه: «شاعر المرية (بشرقى الأندلس) فى عصره الذى يغنى ما أنشده من شعره عن الإطناب فى التنبيه على قدره» وأشاد به المقرى فى النفح مرارا بمثل قوله: «الإحسان له عادة» وقوله: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرا». ويقول ابن سعيد: «أعجب ما قيل فى مد نهر إشبيلية وجَزْره (لتأثره بجَزْر المحيط الأطلسى ومَدِّه) قوله:

جئتُ الجزيرةَ والخليـجُ يَحُفُّها ... يشكو إليها كى تجيبَ جِوارَهُ
شقَّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصِه ... فانساب من شَطَّيْهْ يطلب ثارَهُ
فتضاحكتْ وُرْقُ الحمام بِدَوْحِهِ ... هُـزْءًا فضمَّ من الحَيـاء إزارَهُ

وهو يجعل الخليج شاكيا إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقا جيب قميصه أو بعبارة أخرى فَتْحَة مصب النهر، فانساب المحيط من شطيها يطلب ثاره، وهو يكنى بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذى كان رابضا على الدوح هزءا به، فاستحيى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهو يكنى بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب فى زورق شراعى بنهر، وربما كان أيضا نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادى الكبير:

لو أبصرتْ عيناك زورقَ فتيةٍ ... يُبْدِى لهم بَهَجُ السُّرور مِراحَهُ
وقد استداروا تحت ظِلِّ شِراعِهِ ... كـلٌّ يمدُّ بكـأسِ راحٍ راحَهُ
لحسبته خوفَ العواصفِ طائرا ... مدَّ الحَنانُ على بَنيه جَناحَـه

وهو أيضا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا فى زورق مرحين مسرورين ولم يلبثوا أن تجمعوا فى ظل شراعه يتهادون كئوس الخمر وكل منهم يمد بها لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر فى عشه دفعه الحنان إلى أن يمد جناحه على أولاده خوفا عليهم من

---

[1] نظر فى محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب ٢/٢١٢ والروايات ص١٠٦ والتحفة رقم ٦٦.

العواصف المباغتة. ويقول:

يامن رأى النهر استثارَ به الصَّبا ... خَيْلًا لإرهاب الغُصُونِ المُيَّدِ[1]
لمـا رأتهـا سُـدِّدَتْ تِلْقـاءَهُ ... قرنتْ به خَيْلًا تروحُ وتَغْتَدِى
وغَدَتْ تُدَرِّعُه ولم تبخَلْ لهـا ... شمسُ الضُّحَى بمسامرٍ من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهبّ لإرهاب الغصون المتمايلة، ولقيته الغصون بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهبة آتية، وأخذت تلْبس النهر دروعا من ظلالها للقاء خيل الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كى تحكم تلك الدروع على النهر، وهو خيال بديع. ويقول فى وادى المرية بلدته:

اشربْ على شَدْوِ الحمام فإنهُ ... أَشْهَى إلىَّ من الغَرِيضِ ومَعْبَدِ
أُتراه أطْرَبه الخليجُ وقد رأى ... تَصْفِيقَـه تحت الغُصون المُيَّـدِ
وكـأنهنَّ رواقصٌ من فـوقـه ... وبها من الأزهار شِبْهُ مُقَلَّدِ[2]

وهو يجعل شدو الحمام فى سمعه أروع من غناء مغنِّيَىْ مكة والمدينة: الغريض ومعبد المشهورين فى العصر الأموى، ويقول: كأنما أطربه شدو المياه وخريرها تحت الغصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل فى ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة أخيلته وتصاويره.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يتخذ رثاء الأفراد فى الشعر العربى منذ الجاهلية ألوانا ثلاثة، هى الندب أو النواح لموت ذوى الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبيانا لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة فى الشعر الأندلسى، ونبدأ بعرض نصوص من ندب الشعراء لبعض أقربائهم من الأبناء

---

(١) الميد: المتمايلة.

(٢) مقلد: موضع القلادة من العنق.

والزوجات والإخوة، ونلتقى بابن عبد ربه ملتاعا لفقد ابنين له هصَر الموت غصن أكبرهما وهو فى ريعان شبابه، أما الثانى فكان صبيا لم يبرح زمن الطفولة، وله فيهما مراث مختلفة، ومن قوله فى الشاب ملتاعا بعد فترة من موته[١]:

بَلِيَتْ عظامُك والأسَى يتجدَّدُ ... والصَّبْرُ يَنْفَدُ والبُكا لا يَنْفَدُ
يا غائبًا لا يُرْتَجَى لإيابِهِ ... ولقائِهِ دون القيامةِ موعد
ما كان أحسنَ مَلْحدًا ضُمِّنْتَهُ ... لو كان ضَمَّ أباك ثَمَّ المَلْحَدُ
باليأسِ أَسْلُو عنك لا بتجلُّدِى ... هيهاتَ أين من الحزين تجلُّدُ

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غيابا لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتمنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قُرَّة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبى إسحق الإلبيرى يبكى زوجته[٢]:

عُجْ بالمطىِّ على اليَباب الغامرِ ... وارْبَعْ على قبرٍ تضمَّن ناظرى[٣]
واقْرَا السلامَ عليه من ذى لَوْعَةٍ ... صَدَعَتْه صَدْعًا ما له من جابر
ولو آننى أنصفتُه فى وُدِّهِ ... لقضيتُ يومَ قضى ولم أستأخِرِ[٤]
وشققتُ فى خِلْبِ الفؤادِ ضَرِيحَه ... وسقيتُهُ أبدًا بماءِ محاجرى[٥]

وهو ينادى صاحبه أن يقف الركبَ على قبر محبوبته ويقرأ عليه السلام من ملتاع صدعت بفراقها قلبه صدعا لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن أُلْحَدَ معها فى قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها فى سويداء الفؤاد ضريحا وسقيته أبدا بدموعى المنهلة. ومات لمعاصره فقيه الأندلس المشهور أبى الوليد الباجى ابنان مغتربان فندبهما ندبا حارًّا بقوله[٦]:

---

(١) اليتيمة للثعالبى ٧٦/٢.
(٢) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية - طبع دمشق) ص ٧٤.
(٣) عج: اعطف. اليباب: القفر. الغامر: المغمور بالتراب. اربع: قف.
(٤) قضيت هنا: مت.
(٥) خلب الفؤاد: حجابه. محاجر العينين: ما يحيط بهما.
(٦) المغرب ٤٠٥/١ وانظر أيضا فى ترجمة أبى الوليد الذخيرة ٩٤/٢ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٣ والقلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

رَعىَ الله قَبْـرَيْن استكانـا ببلدةٍ ... هما أسْكناها فى السَّوادِ من القلبِ
يَقَـرُّ بعينى أن أزورَ ثَـراهمـا ... وأُلْصِقَ مكنونَ التَّرائبِ فى التُّرْبِ[1]
وأبكى - وأبكى - ساكِنيها لعلَّنى ... سَأُنْجَدُ من صَحْبٍ وأُسْعَدُ من سُحْبِ[2]
وما ساعدتْ وُرْقُ الحمام أخَا أسىً ... ولا روَّحتْ ريحُ الصَّبا عن أخى كَـرْبِ
ولا استعذبتْ عيناىَ بعدهما كَـرًى ... ولا ظمئتْ نفسى إلى البارِدِ العَذْبِ

وهو يدعو الله أن يرعى قبرى ابنيه اللذين يسكنان فى السواد من قلبه، ويقول إنه يُسَرُّ بزيارة قبريهما واحتضان ثراهما، وإنه ليبكى آملا فيمن ينجده ويساعده فى بكائه، ولكن هيهات، فلا منجد لا من الإنسان ولا من ورق الحمام، ولا مروِّح عنه لا من ريح الصبا ولا من غيرها. وإنه يبيت مسهدا وقد زهد فى كل متاع الحياة من بارد عذب وغير بارد عذب. وللأعمى التطيلى مرثية بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب أسى وحسرات، وفيها يقول[3]:

أآمِنَ إن أجْزَعْ عليكِ فـإننى ... رُزِئتكِ أحْلَى من شبابى ومن وَفْرى
برغمىَ خُلِّى بين جسمِك والثَّرَى ... وإن كنتُ لا أخْشى التُّرابَ على التِّبْرِ[4]
هنيئـا لقبرٍ ضَمَّ جِسْمَـكِ إنَّـه ... مَقَرُّ الحَيا أو هالةُ القَمرِ البَدْرِ
إذا جئتِ عَـدْنًا فـاطلبينا فقلَّمـا ... تَقَـدَّمْتِنى إلا مشيتُ على الإثْرِ[5]
ولا تعـذُلينى إن أقمتُ فـرُبَّمـا ... تـأخَّـر بى سَعْيِى وأثْقَلَنِى وِزْرِى

والمرثية تكتظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى فى مطلعها أن لو واروا جسد زوجته فى صدره مع ما يحتدم فيه من لظى فرقته لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلى إلىَّ بطيفك فدونه سدود من كتائب السهد عليك، كما يقول لها أخْبِرْت إن جيدك أصبح عاطلا من الحلىّ فخذى أدمعى مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محارتها أوصدفتها عينى ولجتها أو يَمِّها صدرى. ويبكى ابن خفاجة ابن أخت له توفى فى عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول[6]:

---

(١) الترائب: عظام الصدر.
(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء.
(٣) راجع ديوان الأعمى التطيلى ص ٧٠.
(٤) التبر: فتات الذهب.
(٥) عَدْن: الفردوس.
(٦) الديوان ص ٢٦٧.

أَرِقتُ أكفُّ الدمعَ طورا وأسفحُ ... وأنْضَحُ خَدِّى تارةً ثم أمسحُ[١]
فيا لغريبٍ فاجأتْه منيَّةٌ ... أتته على عهد الشباب تجلِّحُ[٢]
ترى بى - إذا أعولتُ حزنا - حمامةً ... ترنُّ وطورا أيْكةً تترنَّحُ
وما أتلقَّى الركب أرجو تحيّةً ... توافى له أورقةً تُتصفَّحُ
فعرِّجْ على مَثْوى الحبيب بنظرةٍ ... تراه بها عنى هناك وتلمح

وهو يقول إنه يقضى الليل مسهدا تارة يكفكف دمعه وتارة يرسله مدرارا، وطورا يفيض فوَّارا وطورا يمسحه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريبا شابا، بل لقد اختطفه اختطافا. ويرقّ له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديله والشجر يترنح ويتمايل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليه معهم تحية أو رسالة وينادى كل من حوله أن يعرج على مثوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلمحه. ويقول أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف تلميذ ابن باجة فى زوجته زينب[٣]:

أَزَيْنَبُ إن ظَعَنْتِ فإنَّ ظهرًا ... أقلَّك سوف يَرْكَبُه المُقِيمُ[٤]
بأيةِ حجَّةٍ أسْعَى لأنْثَى ... سواكِ وأنتِ هامدةٌ هشيمُ
ولما أن حللتِ التُّرْبَ قلنا ... لقد ضَلَّتْ مَواقِعَها النُّجومُ
ألا يا زَهْرَةً ذَبُلَتْ سريعًا ... أضنَّ المُزْنُ أم رَكَدَ النَّسِيمُ

وهو يقول لها إن الدابة التى حملتك إلى المقابر سوف تحملنى قريبا، وسأظل وفيا لك على العهد لا أتزوج بعدك أبدا. والصورة بديعة فى البيت الثالث، فقد تعجَّب لهذا النجم الثاقب أن يحل فى التراب ومكانه السماء فى أعلى علِّيين، ويعجب أيضا لهذه الزهرة العطرة أن تذبل فى إبَّانها وشبابها سريعا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد النسيم، وهى أيضا صورة بديعة.

ويكثر التأبين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء وقواد وفقهاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون مناقبهم

---

(١) أكف: أكفكف. أسفح: أصبّ. أنضح: من نضحت العين إذا فارت.
(٢) تجلح: تسرع.
(٣) الرايات ص ١٢٨ وانظر فى ترجمته المغرب ١٢٠/٢ والبغية ص ٥١٧ والمطرب ص ١٠٩ والوافى ٢٤٢/٢.
(٤) ظهرا: دابة، ويريد النَّعْش أقلك: حملك.

ويعددون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أبَّنوهم عبدالرحمن الأوسط المؤسس الحقيقى للحضارة العربية فى الأندلس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر[١] بن حزم:

وياحَسْرَتا إذ أُظْفِرَ الموتُ بَغْتَةً ... بمن لم يكن إلا به الموتُ يَظْفَرُ
تداعتْ إلى النَّعْشِ السحابُ فظَلَّلَتْ ... سريرا عليه السيِّد المتخيَّرُ
سَقَى الله قَبْرًا بالنَّخيلِ غَمامَةً ... تكادُ إذا حُلَّتْ عُراها تَفَطَّرُ[٢]
كأنَّ ثَراه مُذْ به سَكن النَّدَى ... إذا لاَعَبْتُه الريحُ مِسْكٌ وعَنْبَرُ[٣]

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنما يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نعشه فى مسيرته، ويدعو لقبره فى النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ثرى القبر مذ سكنه جثمان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودى زعيم العرب بغرناطة فيؤبِّنه مقدَّم بن معافى القَبْرىّ مبتكر الموشحات بقوله[٤]:

مَنْ ذا الذى يُطْعِمُ أو يكسو ... وقد حَوَى حِلْفَ النَّدَى رَمْسُ[٥]
لا اخضرَّتِ الأرضُ ولا أورق الـ ... ـعودُ ولا أشرقتِ الشَّمْسُ
بعد ابنِ جودىٍّ الذى لن تَرَى ... أكرمَ منه الجِنُّ والإنْسُ
دموعُ عَيْنِى فى سبيل الأسى ... على سعيدٍ أبدًا حُبْسُ[٦]

فقد دفن الجود مع سعيد ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورق الشجر ولا أشرقت الشمس بعد سعيد الذى لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاعا وستظل دموعه محبوسة عليه أسى وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم فى إقليم غرناطة من المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربى من سلالة عربية، كما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن الموشحات. ولابن الحنَّاط الكفيف يرثى أبا الحزم بن جهور أمير

---

(١) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١٢٥.
(٢) حلت عُرَا الغمامة: هطلت كثيرا. تفطر: تشقق، كناية عن غزارة المطر.
(٣) الندى: الجود والكرم.
(٤) المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (انظر الفهرس).
(٥) رمس: قبر.
(٦) حُبس جمع حبيس: محبوس وموقوف.

قرطبة ويهنئ بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد[١]:

إنَّا إلى الله فى الرُّزْءِ الذى فَجَعا ... والحمدُ لله فى الحكم الذى وَقَعا
أبٌ كريمٌ غَدَا الفِرْدَوْسُ مسكنَه ... وابنٌ نجيبٌ تولَّى الأمرَ واضْطلعا[٢]
لله شمسٌ ضُحىً فى اللَّحْدِ قد غربتْ ... فأعقبتْ قمرًا بالسَّعْد قد طلعا

وهو يستسلم لله فيما فجع به من موت أبى الحزم جهور ويستبشر بولاية ابنه أبى الوليد، ويقول إن جهورا أصبح فى الفردوس ونهض ابنه بالحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع سريعا قمر يحمل السعد بعده. ولابن مُعَلَّى الطرسونى يرثى عالما من علماء العربية فيما يبدو[٣]:

رُزْءٌ بَكَتْ منه العُلا ومصابُ ... شَقَّتْ عليه جُيُوبَها الأحْبابُ
وطفقتُ أَلْتَمِسُ العزاءَ فخاننى ... نَفْسٌ تذوبُ وأدمعٌ تنسابُ
وتلجلج النَّاعى بهِ فسألْتُهُ ... عَوْدَ الحديث لعله يَرْتابُ
أَنْعَى إلى الإعرابِ منك مُعِيدَه ... غَضًّا كما نَطَقَتْ به الأَعْرابُ
ناحتْ بك الأقلامُ غايةَ وُسْعها ... وبكتْ بأَبْلَغِ جُهْدها الآدابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جَلَلٌ بكت منه العلا وشقت عليه الأحْباب جيوبها حزنا، ويقول انه التمس العزاء فخانته نفسه الذائبة ودمعه المنساب، وتلجلج الناعى فأمَّل أن لا يكون النعى صحيحا. وينعيه إلى العربية التى أعادها غضة ناضرة كما نطق بها الأعراب فى القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تنوح عليه نواحا لا ينقطع. ونلتقى بابن سوار وسنخصه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تِيفَلْويت المرابطى حاكم سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحرا فياضا وبطلا مغوارا ويرثيه صديقه الفيلسوف ابن باجة بمثل قوله[٤]:

سلامٌ وإلمامٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ ... على الجسَدِ النائى الذى لاأزورُهُ
أحقًّا أبو بكرٍ تقضَّى فما يُرَى ... تردُّ جماهيرَ الوفود ستورُهُ[٥]
لئن أنستْ تلك القبورُ بقبرِه ... لقد أُوحِشَتْ أمصارُه وقصورُهُ

---

(١) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر فى ترجمة ابن الحناط الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والحميدى ٥٣ والصلة ٦٤٠ والتكملة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والخريدة ٢٩٧/٢ والوافى ١٢٤/٣.

(٢) اضطلع: نهض

(٣) الذخيرة ٨٤٤/٣ والمغرب ٤٥٧/٢

(٤) المغرب ١١٩/٢

(٥) تقضى: مات

وابن باجة، وقد يئس من زيارته لأبي بكر بن تيفلويت يتمنى له سلاما ورَوْحا أوراحة ورحمة. وإنه لفي ذهول فيتساءل أحقا أنه لم يعد يغدو إلى قصره ولم يعد يَرَى ما كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت تردّ الجماهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت أنسا بقبره فقد خلفت وحشة في قصوره وأمصاره التي كان يمد عليها سلطانه، وفيه يقول أيضا راثيا مؤبِّنا باكيا[١]:

يا صَدًى بالثَّغر جاورَهُ ... رِمَمٌ بوركْن من رِمَمِ[٢]
صبَّحتْكَ الخيلُ غاديةً ... وأثارتْك فلم تَرِمِ
قد طَوَى ذا الدَّهْرُ بِزَّتَهُ ... عنك فالبس بِزَّةَ الكَرمِ[٣]

وهو يقول أيها الجثمان الثاوي بثغر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين جاورتهم، ويلتفت إليه قائلا: لقد صبَّحتك الخيل التي تعوَّدت أن تقودها لمنازلة الأعداء وأثارتك كي تنهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضَّه الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود المنهلّ المدرار. ولابن الزقّاق مرثية في شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكي فيه شبابه ومضاءه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه وبكى الغيم وانحسر ظل الأنس واغبرَّ ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام، ويقول لحامليه: قفوا نودعه ونقض حقه من الدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه في جوانحنا وأحشائنا، ويهتف ملتاعا[٤]:

أعززْ عليَّ بضَيْغَمٍ ذي سَطْوَةٍ ... أَجَماتُهُ بعد الرِّماح رِجامُ[٥]
أعززْ عليَّ بزهرةٍ مَطْلُولَةٍ ... أمستْ ولا غيرُ الضَّريحِ كِمامُ
إن راح مهجورَ الفِناء فطالما ... هجرتْ به أرواحَها الأجسامُ
الليلُ بعدك سَرْمَدٌ لا ينقضي ... فكأنما ساعاتُه أعوامُ
ياحاملين النَّعْشَ أين جِيادُهُ ... يامُلْبِسيه التُّرْبَ أين اللَّامُ[٦]

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حسرات تلذع حرقها فؤاده لذعا: إنه يعزُّ

---

(١) المغرب ١١٩/٢.
(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.
(٣) بزة: شارة.
(٤) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٢٣٦/٢.
(٥) أجمات جمع أجمة: الغابة والشجر الكثيف الملتف وهي مخبأ الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة تنصب على القبر.
(٦) اللام: الدروع.

عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة فى عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقا ذريعا، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلا داجيا لا ينقضى أبدا وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنما يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذى تعود أن يراه ممتطيا جواده ممتشقا حسامه لحرب الأعداء، فيتساءل أين جياده، ويعجب أن يلبسه ملحدوه الترب وعادته أن يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المراثى الأندلسية مرثية على بن حزمون للبطل أبى الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد استشهد فى بعض معاركه الضارية مع النصارى بعد أن أبلى بلاء عظيما، وجعل ابن حزمون مرثيته موشحة كأنما أراد أن تكون ندبا ونواحا على البطل الصريع، وفيها يقول[1]:

نَضَا لِباسَ الزَّرَدْ ... وخاضَ مَوْجَ الفَيْلَقِ[2]
ولم يَرُعْهُ عَدَدْ ... ذاك الخَمِيسِ الأزْرَقِ[3]
والحورُ تَلْثِمُ خَدّ ... أَدِيمِهِ المُمَزَّقِ
وكان ذاك الأسَدْ ... فى كل خَيْلٍ يَلْتَقِى
إذا رأى الأعلاجْ وكَبَّرا ... ثم انْبَرَى يُماصِعْ[4]
رأيتهم كالدَّجاجْ منفَرَا ... وَسْطَ العَرَا الواسعْ

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدِّرْع وخاض دماء الكتيبة الباسلة وسط موجها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعا ذائدا غير مكترث بأعداد النصارى من الإسبان ولا برماحهم تنوشه، وأخذ يمزِّقهم شَرَّ ممزَّقٍ حتى تكاثروا عليه فخرَّ صريعا، وحفَّت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبِّله وتلثم مواضع الطعنات فى جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصارى يمحقهم محقا، وكان إذا نازلهم فرّوا فى غير نظام كأنهم دجاج منفَّر، متناثرين فى كل صَوْب فزعا وهلعا، وكأنما كان قفلا كبيرا لبلنسية، يصدّ عن حماها العلوج النصارى منزلا بهم صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشتريا بجهاده الفردوس ورضوان ربه. ونلتقى بمحمد بن

(١) المغرب ٢/٢١٧.
(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.
(٣) الخميس: جيش الإسبان، ووصفه بالزرقة لزرقة عيونهم.
(٤) يماصع: يجالد بالسيف ونحوه.

عبد الله بن أبى القاسم يرثى عالم العربية ابن الفخار الغرناطى قائلا[١]:

قَضَى من بنى الفَخَّار أفضلُ ماجدٍ ... جميلُ المساعى للعُلا جِدُّ شائدِ[٢]
أمــولاىَ مَنْ للمشكـلات يُبينُهــا ... فتَجْلُو عَمَى كلِّ القلوب الشواهد
ومن ذا يَحُـلُّ المُقْفَلاتِ صِعـابَها ... ومن ذا الذى يَهْدِى السبيلَ لحائدِ[٣]

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده فى السعى للمعالى وحله لمشكلات النحو ومغلقاته، ملحا فى ذلك حتى تذلَّل وتستبين معمياتها وصعابها، وكلما ذلل مسألة معماة أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومسائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشى فى رثاء سلطان غرناطة أبى الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة:[٤]

كادتْ نجومُ الأُفْق تَسْقط فى الثَّرَى ... لما شكتْ شمسُ العلاءِ أُفُولَا
لا صَمْتَ إلا وهْو نارٌ فى الحَشَا ... لا نُطْقَ إلا ما يعودُ عَويـلا
ضاقتْ صدورُ الخلق عن أنْفـاسهم ... إذ ضمَّ بَطْنُ الأرض إسماعيلا

وهو يبالغ مبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم فى السماء كادت تسقط فى الثرى حين أفلت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارا فى الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنينا وضاقت الصدور عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد العزاء، وهو فى أصله الصبر على الموت فى الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير فى حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، ونلتقى بابن شهيد وقد هدَّه فالج أو شلل، وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، ومما قاله فيه متعزيا متقبِّلا للموت عن رضا:[٥]

يقولون قد أَوْدَى أبو عامِرِ العُلا ... أَقِلُّوا فقَـدْمًا مـات آباءُ عـامرِ[٦]
هو الموتُ لم يُصْرَفْ بأسجاعِ خاطبٍ ... بليغٍ ولم يُعْطَفْ بأنفاسِ شـاعرِ
ولم يجتنبْ للبـطش مُهْجةَ قـادرٍ ... قـوىٌّ ولا للضَّعْف مهجةَ صـابـرِ

---

(١) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص ٢١٢.
(٢) قضى: مات. شائد: بان.
(٣) حائد هنا: ضال.
(٤) الكتيبة الكامنة ص ١٧٦.
(٥) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ٣٣٢/١.
(٦) أودى: مات. أقلوا: لا تتكلموا.

يَحُلُّ عُرَى الجبَّار فى دارِ مُلْكِه ويَهْفُو بنفسِ الشارب المتساكرِ[١]

وهو يقول لمن سيبكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس - مثل آبائه - جميعا يرحلون عن دنياهم. إنه كأس الموت لابد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شىء أن ينحِّيه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شباكه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبى طالب المقرئ المشهور فى رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة[٢]:

المَوْتُ حتمٌ والنفوسُ ودائعٌ والعيشُ نَوْمٌ والمنى تَضْليلُ
لا يَعْصِمُ العَصْماءَ منه شاهقٌ صَعْبٌ ولا الوَرْدُ السَّبَنْتَى غِيلُ[٣]
يَهْوَى الفتى طولَ البقاء مؤمِّلا وله رحيلٌ ليس عنهُ قُفُولُ
يَلْهو ويَلْعبُ مطمئنًا ذاهلا وله رَسِيمٌ نحوه وذَمِيلُ[٤]

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجعها واحدة فى إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خُدَع يضلل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المعتصم بجبل شاهق ولا الأسد القوى الجرىء فى غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مؤملا آمالا كبارا غير مفكر فى رحلته الكبرى التى ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنا ذاهلا عن حركته المستمرة بين عدو وإبطاء نحو الموت. واغتيل بإشبيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأمولين يسمى محمد بن اليناقى كان من المعجبين بالأعمى التطيلى وشعره، وكان يكثر من الافتقاد له، فحزَّ فى نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة[٥]:

خذا حدِّثانى عن فُلٍ وفلانِ لِعلى أرى باقٍ على الحدَثانِ[٦]
وعن دول - جُسْنَ الديار - وأهلِها فَنِينَ، وصَرْفُ الدهر ليس بفانِ[٧]

---

(١) المتساكر: متعاطى السكر والمتظاهر به.
(٢) الذخيرة ١/٨١٤.
(٣) العصماء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق. الورد السبنتى: الأسد الجرىء.
(٤) رسيم: عدو سريع. ذميل: سير دون السريع.
(٥) الديوان ص٢٢٤.
(٦) الحدثان: الليل والنهار.
(٧) جُسْنَ: وَطِئْنَ. صرف الدهر: أحداثه ونوائبه.

وعن هَرَمَيْ مصر - الغداةَ - أُمتِّعا بشرخِ شبابٍ أم هما هَرِمانِ

فالناس والدول جميعا لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يفنى ولا تفنى كوارث الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل مُتِّعا بشباب حى ناضر أو هما نشآ هرمين عجوزين لم يعرفا شبابا ولا متاعا بالحياة، ويقول إن كل شىء - حتى فى الكواكب - إلى فراق، ويعود بالذكرى إلى أعزاء العرب فى الجاهلية الذين طحنتهم الحروب، ثم يقول:

فذلَّتْ رقابٌ من رجالٍ أعزَّةٍ إليهم تناهى عزُّ كلِّ مكان
وأىّ قبيلٍ لم يصدَّع جميعُهم بِبِكْرٍ من الأرزاء أو بعَوانِ[1]
ونبَّهنى ناعٍ مع الصبح كلَّما تشاغلتُ عنه عنَّ لى وعنانى
أغمِّض أجفانى كأنىَ نائمٌ وقد لجَّت الأحشاءُ فى الخفقانِ
أقول كأنى لست أحفلُ وانبرتْ دموعى فأبدتْ مايُجِنُّ جَنانى[2]

فكل أعزاء العرب واراهم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثيل لها أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعى هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا فى أن يكون غلطا وكان ما يلبث أن يتراءى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول أن يكتم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستره جنانه من الهم والغم والحزن. ويقول ابن الزقاق معزيا [3]:

هُوَ القَدرُ المحتومُ إن جاء مُقْدِمًا فلا الغابُ محروسٌ ولا اللَّيْثُ وَاثِبُ
تساقُ أبيَّساتُ النفوسِ ذليلةً إليه وتنْقاد القرومُ المَصاعب[4]
وما الناسُ إلا خائضو غَمْرةِ الرَّدَى فطافٍ على ظَهْرِ التُّراب وراسبُ

وهو يقول إن الموت قدر حتمى للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده غِيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى وِرده، ويخال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطافٍ منهم لابد أن ينشب الموت فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة فى صديق مات شابا متعزيا [5]:

---

(١) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.
(٢) الجنان: القلب والعقل.
(٣) الديوان ص ١٠٩.
(٤) القروم المصاعب: السادة العظام.
(٥) الديوان ص ٢١٧.

إذا ارتجعتْ أيْدى الليالى هِباتِها ... فغايةُ هاتيك الهبات نِهابُ
تخبُّ بنا فى كلِّ يومٍ وليلةٍ ... مَطايا إلى دار البِلى وركابُ[١]
وهل مُهْجَةُ الإنسان إلا طَرِيدَةٌ ... تحومُ عليها للحِمام عُقابُ[٢]

وهو يقول إن الليالى إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأننا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا فى كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريدة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثيا ومعزيا فى ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور[٣]:

مَضى عَلَمُ العِلْمِ الذى ببيانِهِ ... تبيَّن خافيه وبانَ طَريقُهُ
رجوعًا إلى الصَّبْرِ الجميلِ فحَقُّهُ ... علينا قَضَى أن لا تُؤَدَّى حُقوقُه
أعزِّيكُمُ فى البُعْدِ عنه فإننى ... أُهَنِّيه قُرْبا من جِوارٍ يروقُه
وما كان فينا منه إلا مكانُهُ ... وفى العالم العُلْوِىِّ كان رفيقُهُ

وهو يقول إن علَم العلم الذى طالما أوضح خفياته وذلَّل مشكلاته مات، وليس أمامنا إلا الصبر على هذه الفجيعة الموجعة: الصبر الجميل الذى دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وإن التمسك بعُرَى هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن نؤدى لهذا العالم العظيم ما ينبغى من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزيكم فيه فإنى أهنئه بالجوار الذى يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت فى العالم الأعلى الذى صعدت إليه. ويقول ابن زَمْرك فى رثاء سلطان غرناطة الغنى بالله صفيّه وخليله حين توفى لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف[٤]

عزاءً أميرَ المسلمين فإنها ... مقاديرُ ربِّ الخَلْق فى الخلْق يُجْريها
هو الموتُ وِرْدٌ للخليقة كلِّها ... أواخرُها تَقْفو سَبِيلَ أواليها[٥]
وما بيننا حَيٌّ وما بين آدمٍ ... ألا هكذا سَوَّى البَرِيَّة بارِيها
وفى موت خير الخَلْقِ أكبرُ أُسْوَةٍ ... تصبِّر أحرارَ النفوسِ وتُسْليها

---

(١) تخب: تعدو. ركاب: مطايا معدة للركوب.
(٢) الحمام: الموت.
(٣) اختصار القدح المعلى ص ٦٣.
(٤) أزهار الرياض ١٥٥/٢.
(٥) تقفو: تتبع.

وهو يعزى ابن الغنى بالله بأن الله قَدَّر الموت على الخلق جميعا، فالكل لابد أن يردوا حياضه، يتبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البريَّة، وفى ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وآن أن نخص محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهبون، بكلمة موجزة.

محمد[1] بن سوار

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبونى، ولد ونشأ فى أُشْبونة بغربى الأندلس، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد فى أمراء الطوائف قالها فيهم «تحبُّبًا لا تكسبا، وعمر مجالسهم بها وفاءً لا استجداء» مما يدل على أنه نشأ فى يسار ونعمة أغنته فى شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلا إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لسنتى ٤٨٣، ٤٨٤ حالت بابن سوار الحال وتوزعه الإدبار والإقبال، إلى أن وقع فى أسر النصارى وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجُه غربى طليطلة، وظل يستغيث بمن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستغاثته على بن القاسم بن عشرة قاضى سَلا فى المغرب على المحيط، فأغاثه وافتداه، ورُدَّت إليه حريته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله الغَمْر على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وظل الشاعر يدبج فيه المدائح، وكان القاضى من المقربين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظنا أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفى ابن تاشفين فى المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مرثية على قبره، قائلا:

اسمعْ أميرَ المسلمين وناصرَ الـ ... دِّينِ الـذى بنفوسنـا نَفْـدِيـهِ
جُوزِيتَ خَيْرًا عن رَعِيَّتَكَ التي ... لم تَرْضَ فيها غيرَ ما يُرْضيه
فى كـلِّ عامٍ غـزوةٌ مبرورةٌ ... تُرْدِى عَدِيدَ الرُّومِ أو تُفْنيه[2]
تصلُ الجهادَ إلى الجهاد موفَّقا ... حَكَمَ القضاءُ بكل ما تَقْضِيهِ
متـواضعـاً لله مُـظْهِـرَ دينـهِ ... فى كل ما تُخْفيـه أو تُبْديـهِ

---

(١) انظر فى محمد بن سوار وترجمته وشعره الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدون من الشعراء للقفطى ٣٥٩ والوافى ١٤٣/٣ وراجع أسرة بنى عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.

(٢) تردى: تهلك.

وهو يشيد بابن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التى أجَّلت استرداد الإسبان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذى يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته فى جهاده المستميت للإسبان وغزواته المتعاقبة واصلا الجهاد بالجهاد، إعلاء لكلمة الله فى تواضع حميد. ويتوفى القاضى على بن القاسم بعد ابن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

العيشُ بعدك ياعليُّ نَكالُ ... لا شيءَ منه سوى العناءِ يُنالُ
ياعِصْمَةَ الفقراءِ بل يامالهَم ... هيهات ما للناسِ بعدك مالُ
قد كنتَ آمالى التى أنا طالبٌ ... جَهْدِى ومتَّ فماتتِ الآمالُ
لا الظلُّ ظلٌّ بعد فَقْدك ياأبا ... حَسَنٍ ولا الماءُ الزُّلال زُلالُ

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلا باردا بل أصبح يحموما، ولم يعد الماء الزلال زلالا عذبا، بل أصبح مرا لا يُساغ. وخلف القاضى فى القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالى عليه نواله، ووالى ابن سوار له مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته فى صبى يسمى محمدا لعله كان ابنا لأبى العباس، كما ينشد له أبياتا فى رثاء قاضيين، وربما كانا من بنى عشرة. ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية الخصبة..

ابن[1] وهبون

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون، مولده ومنشؤه بِمُرْسية على البحر المتوسط، وهى من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقىّ الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباج. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفى أن تكون هى التى أنتجت ابن سيدة أكبر لغوى أندلسى صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفرا على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهبون تتلمذ له، وقد يكون هو الذى دفعه للقراءة فى كتب

---

(١) انظر فى ابن وهبون وترجمته وشعره الذخيرة ٤٧٣/٢ والقلائد ص ٢٤٢ والخريدة ٩٥/٢ والمطرب ١١٨ وبغية الملتمس رقم ١١٠١ والمعجب للمراكشى ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاكر ٥١٣/١.

الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشعراء، ونراه يفد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلم الشنتمرى ويختلف إلى حلقته، ويعجب به ابن وهبون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فلعله أيضا كان من أسباب اهتمامه بها. وقدَّم الأعلم قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواه، وظل عنده إلا أياما كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عَرْش إمارته ونفاه إلى أغْمات خرج من إشبيلية متجها إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقى قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكُتبت له - على ايديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد فى الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفى أستاذه الأعلم الشنتمرى سنة ٤٧٦ فبكاه برثية حارة استهلها بتأملات عميقة فى الحياة والموت منشدا:

نَفْسِى وجِسْمى إن وصفتهُما معا ... آلُ يَـذُوبُ وصخـرةٌ خَلْقـاءُ[1]
لو تعلم الأجْبالُ كيف مـآلُها ... عِلْمى لما امتسكتْ لها أرْجاءُ
إنـا لنعلمُ مـا يـرادُ بنـا فلِمْ ... تَعْيَـا القلوبُ وتُغْلَبُ الأهـواءُ
طَيْفُ المنايا فى أساليب المُنَى ... وعلى طـريقِ الصحَّـة الأدْواءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخرات ملساء لا تلبث أن تمسَّها يد الفناء، وحتى صخرات الجبال لو علمت - بقيقةَ أنها لابد أن تتداعى يوما لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إنا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطياف الموت وأشباحه تتراءى لنا فيما نحاول ونحقق من أمانى، وتلك الأدواء والأمراض كأنها تنتظر الأصحَّاء. ويستمر فى إنشاده:

ماذا على ابن الموتِ من إبصاره ... ولقـائِـه هـل عَقَّت الأبْنَـاءُ
لِمَ ينكرُ الإنسانُ ما هو ثابتٌ ... فى طَبْعـه لـو صَحَّت الآراءُ
دَنِفٌ يبكّى للصحيـح وإنمـا ... أمواتُنا - لو تَشْعُرُ - الأحياءُ
ما النفسُ إلا شُعْلَةٌ سقطتْ إلى ... حيثُ استقلَّ بها الثَّرَى والماءُ

---

(١) خلقاء: مصمتة ملساء.

حتى إذا خلصتْ تعودُ كما بدتْ ومن الخلاصِ مشقَّةٌ وعناءُ

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفزع من لقائه؟ أهو ابن عاقٌّ لأبيه؟ ولماذا يتنكر الإنسان لما هو ثابت فى كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضا ثقيلا يُشْفى بهم على الموت، وكأنهم هم الخليقون بالبكاء لهم، وفيم إذن يبكون على من لبّوا نداء الموت المستكن فيهم؟ إنهم الأموات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما النفس إلا شعلة هبطت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوى إلى الجسد أو بعبارة أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهبون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس فى الدنيا بقاء وأن الكل إلى فناء، مؤبِّنا الأعلم الشنتمرى أستاذه تأبينا رائعا، وهو - بحق - من شعراء الأندلس المبدعين.

(ب) رثاء الدول

هذا اللون من رثاء الدول قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، إذ نجد الأسود بن يَعْفُر يرثى دولة آل محرِّق فى الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور الخَوَرْنَق والسَّدير وسِنْداد، حيث كانوا يعيشون فى ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح باليا مندثرا. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاها الشاعر أبو العباس الأعمى المكى طويلا. وسينية البحترى فى إيوان كسرى حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت لبه نقوشه وما على حيطانه من تصاوير، فوصفه وصفا بديعا، وبكى فى تضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضارى. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجبا أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين فى حياتهم إلى اللهو والقصف متناسين مسئولياتهم إزاء نصارى الشمال لبَّاهم مقتنعا بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تذيقهم وبال غاراتهم فى مواقع لا تقل عنفا عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بغرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلا ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغمات بقرب مراكش وكانت قرطبة تتبعه وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطين وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضى بعد أن لقى

مصير أخيه المأمون. واستولى المرابطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابن تاشفين أن تُتْرك لأمرائها البواسل الذين ينازلون مجاوريهم من نصارى الشمال وينكلون بهم. وأبَى أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمرابطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديبا كاتبا شاعرا، وأحالا مدينتيهما: إشبيلية وبطليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالهما، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء الطوائف، وبذلك أعادا سيرة سيف الدولة فى حلب والرشيد فى بغداد، وكُتب للمعتمد أن يعيش بِضْع سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكاها مثله ابن اللبانة، وحرىّ أن نخص كلا منهما بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخصه مثلهما بكلمة موجزة.

المعتمد[1] بن عباد

هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمى أمير الحيرة فى الجاهلية رُزق به المعتضد سنة ٤٣١ ونشأ فى الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديبا مثقفا، فكان طبيعيا أن يعنى بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشبَّ وتفتحت ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال فى بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شِلْب فى الجنوب الغربى للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمَّى بقصر الشراجيب، وتعرَّف عليه سريعا ابن عمار الشلبى، وكان شابا مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمر والمجون والسماع، وترامت إلى أبيه أنباء لهوه، فاستدعاه فى نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدربه على الحكم. وتصادف أن تعرَّف سريعا على فتاة تسمى اعتماد مولاة لرُمَيْك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجمالها وبداهتها الشعرية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، فاقترن بها، وهى أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقَرْمونة فى الشمال الشرقى لإشبيلية ولَبْلة وباجة فى غربيها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس

---

(١) انظر فى المعتمد بن عباد وترجمته وأشعاره الذخيرة ٤١/٢ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة السيراء ٥٢/٢ والخريدة للعماد الأصبهانى ٢٥/٢ والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة ١٠٨/٢ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٢٥٧/٣ والوافى ١٨٣/٣ وابن خلكان ٢١/٥ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة الدكتوران: أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

الزيرى الصنهاجى أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشا بقيادة المعتمد فاستولى عليها سريعا، وغرَّه ذلك فأفضى إلى لهوه وخمره، وأرسل باديس إليه جيشا باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحورا. وتوفى المعتضد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة فى العام التالى لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأنس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عُنى ابن بسام فى الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدى إليه الجزية صاغرا كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضا على المتوكل صاحب بطليوس فى الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولبَّاهم وكُتب لهم معه النصر المؤزر فى الزلاقة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى اللهو والقصف والانغماس فى اللذات، فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بابن تاشفين ثانية كى يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مزَّقوها فى يد كل منهم مِزْقة مع ما يستنزفونه من طيباتها فى الخمر والمجون. وعبرَ يوسف الزقاق، واستسلم سريعا أمير غرناطة، أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم فى الزلاقة النجدة ضد ابن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جُرْمًا فظيعا وخطئا كبيرا لا يحق له بعده أن يظل أميرا فى موطنه، وقاوم ولم تنفعه مقاومته فاستسلم، وأمر ابن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنُقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيرا إلى أغْمات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتماد الرميكية، ولم يلبث أن توفى سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها فى منفاه. وطبيعى لشاعر مثله أن يبكى إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة، واسمه ملء الآذان فى الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداحهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلّة. وكل ذلك امّحى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكى ويظل يبكى ويذرف الدمع مدرارا، منشدا:

غريبٌ بأرضِ المَغْرِبَيْن أَسِيرُ ... سيَبْكى عليه مِنْبَرٌ وسريرُ
وتَنْدُبُهُ البِيضُ الصَّوارمُ والقَنَا ... وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غَزيرُ
فياليت شِعْرِى هل أبيتنَّ ليلةً ... أمامى وخَلْفى رَوْضَةٌ وغَديرُ

بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتون مورثةِ العُلا تغَنّى قِيانٌ أو تَرِنّ طيورُ
بزاهرها السَّامى الذُّرَى جاده الحَيَا تُشِيرُ الثريَّا نحونا ونُشير

لقد أصبح غريبا وأسيرا منفيا فى المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته ليبكيانه وتبكى شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والعلا والقيان المغنيات الجميلات والطيور الصادحات حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرهما مما تأنق فى بنيانه. لقد تحولت كل هذه المباهج التى نعم بها المعتمد فى إشبيلية إلى متاعسَ فى أغمات، وحانت منه التفاتة فرأى قُمْرِيَّة تنوح بِفَنَنِها وأمامها وكر أوعشّ به حمامتان، وكأنها تبكى أليفها فقال:

بكتْ أَنْ رأتْ إِلْفَينْ ضَمَّهما وَكْرُ مَساءً وقد أَخْنى على إِلْفِها الدَّهْرُ
بكتْ لم تُرِقْ دَمْعًا وأَسْبَلْتُ عَبْرَةً يُقَصِّر عنها القَطْرُ مهما هَمَى القَطْرُ
وناحتْ وباحتْ واستراحتْ بسِرِّها وما نطقتْ حَرْفًا يبوحُ بهِ سِرُّ
فما لىَ لا أبكى؟ أم القلبُ صَخْرَةٌ وكم صخرةٍ فى الأرض يَجْرِى بها نَهْرُ
بكتْ واحدًا لم يُشْجِها غيرُ فَقْدِهِ وأبْكى لألَّافٍ عديدُهمُ كُثْرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأت إلفين فى وكر، بينما هى فقدت إلفها، فهى تبكيه بدمع مترقرق فى جفونها لا يبلغ تعبيرَه فى الحزن والشجا القطرُ مهما همى وسال. ويقول كأنما نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذى فقدته، ويخاطب نفسه لماذا لا أبكى؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تتشقق منه - وتجرى به - الأنهار والمياه الغزيرة، ولقد بكت واحدا شجاها وأحزنها فقده، وحرى بى أن أبكى ألَّافى وخِلَّانى الذين يخطئهم العد. ويمر به سِرْب قَطا فيهيج وجده ويحرّك شوقه، ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشدا:

ألا عَصَمَ الله القَطَا فى فِراخِها فإنَّ فراخى خانها الماءُ والظِّلُّ

فهو يدعو لكل قطاة أن يعصمها الله فى فراخها فلا تصاب بظمأ ولا بمسغبة ولا بعناء كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة[١]

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللَّخْمى الدانى، من دانية على البحر المتوسط، إحدى المدن الأندلسية التى كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه، وكانت امرأة صِدق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونُسب أولادها إليها، وعنيت به وبتربيته، فثقف الآداب العربية وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيرا عند المعتمد بن عباد، إذ كان أكثرهم نوالا، وظل عنده حتى استنزله ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده يتنقل فى البلاد، وزاره بأغمات فى منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وتدل نقولُ ابن سعيد عنه أنه كان فى أخبار الشعراء، وحاضر به فى المريَّة بجنوبى الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندرى هل عاد إلى زيارة المعتمد فى أغمات أو لم يعد، غير أنه لما توفى رثاه رثاء حارا. ونراه يلحق بناصر الدولة مبشر بن سليمان بميورقة، ويبدو أن كلا منهما أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، وما زال ابن اللبانة يعيش فى رعايته حتى توفى فى الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلا رائعا فى الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مرارا وتكرارا، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

تبكى السماءُ بِدَمْعٍ رائحٍ غادِى ... على البَهاليل من أبناء عَبَّادِ[٢]
على الجبال التى هُدَّتْ قواعدُها ... وكانت الأرض منهم ذاتَ أوتادِ[٣]
عِرِّيسَةٌ دخلتْها النائباتُ على ... أساودٍ منهمُ فيها وآسادِ[٤]
إنْ يُخْلَعُوا فبنو العبَّاس قد خُلعوا ... وقد خلتْ قبل حِمصٍ أرضُ بَغْدادِ[٥]
ياضَيْفُ أقْفَر بيتُ المكرمات فخُذْ ... فى ضَمِّ رَحْلِك واجْمع فَضْلَة الزادِ
ويا مؤمِّلَ واديهم لتَسْكُنَهُ ... خَفَّ القطينُ وجَفَّ الزَّرْعُ بالوادِى[٦]

---

(١) انظر فى ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ والمغرب ٤٠٩/٢ والمعجب ٢٠٨ والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والتكملة رقم ٥١١ والفوات ٢٧/٤ والوافى بالوفيات ٢٩٧/٤ وبغية الملتمس رقم ٢١٣.

(٢) رائح غادى: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

(٣) أوتاد: جبال.

(٤) أساود جمع أسود: الأفعى الكبير. العريسة: غيل الأسد والآساد.

(٥) حمص: إشبيلية.

(٦) خف القطين: رحل السكان.

وهو يقول إن السماء تبكى بسحبها على السادة من بنى عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أسد مفترسة وحيَّات ضخمة سامة. ويعزِّى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة فى خلع آل عباد بمن خُلعوا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمعتمد وآبائه طالبين القِرَى والضيافة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلالهم رحل السكان وجفَّ الزرع بالوادى الذى كان خصبا ممرعا. ويصوِّر مشهد المعتمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن فى نهر إشبيلية االكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودِّعونهم، يقول:

نسيتُ إلا غَداةَ النَّهْرِ كونَهُمُ ... فى المنشآت كأمواتٍ بألحادِ
والناسُ قد ملأوا العِبْرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزبادِ[1]
حُطَّ القِناعُ فلم تُسْتَرْ مخدَّرةٌ ... ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيقَ أبْرادِ[2]
حانَ الوَداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ ... وصارخٍ مِنْ مفدَّاةٍ ومنْ فادِى
سارتْ سفائنُهم والنَّوْحُ يَصْحَبُها ... كأنها إبلٌ يَحْدُو بها الحادى
كم سال فى الماء من دَمْعٍ وكم حملتْ ... تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكبادِ[3]

يقول إننى مهما نسيت فلن أنس رحيل المعتمد وآله فى السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلئ من النساء تطفو على الماء فوق زَبده ولا ترسب فى القاع. ويقول إنهن سِرْنَ من قصورهن سافرات لحزنهن يلطمن ويخمشن وجوههن بأظافرهن لفجيعتهن. وضج الرجال والنساء على الشاطئين، وضجَّ من فى السفن وضج المفدّون الملوحون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الحداء الإبلَ السائرة فى الصحراء، وكم سال فى ماء الوادى الكبير من دمع وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المعتمد فى أغمات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للعطاء، وبذلك ملأ قلوب العرب فى كل مكان - إلى اليوم - عطفا على المعتمد. وكأنما غسل بدموعه عليه

---

(١) العبرين: الشاطئين.
(٢) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.
(٣) القطائع مثل المنشآت: السفن.

سيئات حكمه من أدائه الجزية للملك النصرانى فى الشمال ومحاربته لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلاقة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الوحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السيئات استطاع ابن اللبانة أن يمحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعرًا كبيرًا كان وشاحا كبيرًا أيضا، وله موشحات كثيرة مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من وشّاحى الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين فى كتابه «دار الطراز»

ابن عبدون[1]

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى اليابُرى، من يابُرة غربى بطليوس، عُنى أبوه بتربيته، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وعبد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤. وفى الصلة لابن بشكوال أنه كان عالما بالخبر والأثر ومعانى الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن المظفر أمير بطليوس وكان كاتبا شاعرا مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذا لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشَنْتَرين وأُشْبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشىء فى إمارته، ونفاجأ بوفود الشاعر على المعتمد ومديحه، ولم يجد لديه قبولا لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلدته، فربما ظن أنه أرسله عَيْنا عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يَفِدْ بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنواله وبمودته، إذ اتَّخَذه جليسا ورفيقا له فى زياراته لمدن إمارته، وأسبغ عليه من الود حللا ضافية، جعلته يلهج بمديحه ويقصر شعره عليه، حتى إذا غاضب المرابطين، وقاتلهم وقُتل هو وابناه: الفضل والعباس رثاه ورثى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك فى شعره أنه لن يقدِّمه إلى أمير، وكأنما مات

---

(١) انظر فى ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلائد ١٤٥ والمغرب ٣٧٤/١ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة: ٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للمراكشى ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفح فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس).

الأمراء جميعا فى شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين الذى ولى إشبيلية بعد استنزال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنترين، ويقول المراكشى إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولابنه لا يدرى والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبى بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشى فى موضع آخر: «لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصَرَف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك» ثم يعدِّدهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتبا عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يابُرة لزيارة من له بها، فتوفى فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجموا له بأشعاره، وخاصة برائيته التى رثى فيها دولة المتوكل ببطليوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجموا له ينشدونها فى ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبى من أدباء القرن السابع الهجرى فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزى ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عظماء الأمم وحكامها الكبار ودولها الغابرة وحيواناتها الفاتكة وطيورها الجارحة، يقول ابن بسام: «اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال فى التأبين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول الممتنعة فى قُلَل الجبال والأسود الخادرة[١] فى الغياض وبالنسور والعقبان والحيَّات فى طول الأعمار».[٢] وهو يستهلها بقوله:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالأثَرِ ... فما البكاءُ على الأشْباحِ والصُّوَرِ
أنْهاكَ أنهاك - لا آلوكَ موعظةً - ... عن نَوْمةٍ بين ناب اللَّيْثِ والظُّفُرِ[٣]
ما لِلَّيالى أقَال الله عَثْرَتَنا ... من الليالى وخَانَتْها يَدُ الغِيَرِ[٤]
فى كل حينٍ لها فى كلِّ جارحةٍ ... منا جراحٌ وإن زاغَتْ عن النَّظَرِ
تَسُرُّ بالشىء لكنْ كى تَغُرَّ بهِ ... كالأيْم ثارَ إلى الجانى من الزَّهَرِ[٥]

---

(١) الخادرة: الساكنة. الغياض جمع غيضة؛ الأجمة.
(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.
(٣) لا آلوك موعظة: لا أقصر فى وعظك.
(٤) أقال: تجاوز وصفح. الغير: أحداث الدهر.
(٥) الأيم: الأفعى.

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائما يرسل فواجعه على المحسوس وما وراء المحسوس، ففيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصورا، ويقول إننى لا أقصِّر فى وعظك ونهيك عن الاستنامة إلى الدهر، وهو قد أنشب فيك نابه وظفره. ويدعو الله أن يُقيلنا وينقذنا من عثرات الليالى وأن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ فى كل حين تصيبنا فى عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه، ومنها ما يزيغ عن البصر، وإنها إن سرَّت بشىء - وهيهات - فلكى تخدعنا به، بل لكى تلسعنا من خلاله اللسعة القاضية، كالأفعى المختبئة فى الزهر تلسع يد قاطفه اللسعة السامة المميتة. ويأخذ فى العظة بذكر من أبادتهم الليالى والأيام من الدول العظيمة منشدا:

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنَّصْرِ خِدْمتَها ... لم تُبقِ منها - وسَلْ دُنْياك - من خبَرِ
هَوَتْ بدَارا وفلَّتْ غَرْبَ قاتِله ... وكان عَضْبًا على الأمْلاك ذا أثَرِ[1]
واسترجعتْ من بنى ساسانَ ما وهَبتْ ... ولم تَدَعْ لبنى يونانَ من أثَرِ
وأتبعتْ أُخْتَها طَسْمًا وعادَ على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ[2]
ومزَّقَتْ سَبَأً فى كل قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكرِ[3]

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت الليالى لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من حالق، هوت بدارا ملك الفرس، فقتله الإسكندر المقدونى، ولم تلبث أن هدَّتْ منه، وكان سيفا قاطعا ساطعا فثلَّمته وحطمته. وقد استرجعت من بنى ساسان ملوك الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم يكونوا شيئا مذكورا. وبالمثل صنعت بقبيلتى طسم وأختها جديس فى اليمامة، وكرَّ الدهر على عاد وجرهم نكباته حتى محاهما محوا، ومزقت الليالى سبأ كل ممزق، فتفرق أهلها فى الأرض ولم يلتق منهم رائح بغاد مبكر. ويمضى ابن عبدون فى الحديث عمن أهلكتهم الليالى من أعاظم العرب فى الجاهلية والإسلام مشيرا معهم إلى كثير من الأحداث فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصرين الأموى والعباسى مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءَه بنى المظفر أمراء بطليوس:

بنى المظفَّر والأيامُ ما بَرِحَتْ ... مراحلاً والوَرَى منها على سَفَرِ
سُحْقًا ليومكمُ يوما ولا حملتْ ... بمثله ليلةٌ فى مُقْبِلِ العُمُرِ

---

(١) العضب: السيف القاطع. أثر: فرندوروتق.
(٢) المرر جمع مرة: القوة. ناقض المرر: الدهر.
(٣) مبتكر: مبكر فى الذهاب ضد رائح: راجع.

مَنْ للأسِرَّة أو من للأعِنَّةَ أو من للأسنَّة يُهْديها إلى الثُّغَر[1]
وَيْحَ السماحِ ووَيْحَ البأس لو سَلما واحسرةَ الدِّين والدنيا على عُمَرِ

وهو يقول لبنى المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالى من الدول والعظماء تلك هى الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء، ويقول: سحقا وبعدا لليوم الذى زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة تعسة من الليالى. ويبكيهم لعرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للسماح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من مجده وأبهة إمارته. والمرثية تعد من فرائد الشعر الأندلسى، بل الشعر العربى بعامة، وبدون ريب يُعَدّ ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

(أ) شعراء الزهد

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول ﷺ تتألق أسماء زهاد كثيرين، زهدوا فى متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة، مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عالة على المجتمع. وتلقانا - على مر التاريخ - طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم - على ألسنتهم - إلى مواعظ وأشعار كثيرة. وشركهم فى أشعارهم الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقه والحديث النبوى وعلماء العربية، فضلا عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضا كبيرا من أغراض الشعر العربى فى كل عصر وفى كل بلد عربى، وتلقانا منه سيول كثيرة فى الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئا يسيرا وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصروا حياتهم - أو شطرا كبيرا منها - على النسك والعبادة. وأول من نذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب[2] عبد الرحمن العباسى القرطبى المتوفى سنة ٣٤٤ لعهد عبد الرحمن الناصر،

(١) الثغر: جمع ثغرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه بالأسنة صدور الأعداء.

(٢) انظر فى أبى وهب وترجمته وشعره المغرب ٥٨/١ والتكملة ص٧١٨ والنفح ٢٠٧/٣، ٢٢٦.

ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين فى الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحدا، وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا فى حالتى - التى قد ترَانى ... إن تأملتَ - أحسنُ الناسِ حالا
منزلى حيثُ شئتُ من مسْتقَرِّ الـ ... ـأرض أسْقَى من المياه زُلالا[1]
ليس لى كُسْوَةٌ أخاف عليها ... من مُغيرٍ ولا ترى لىَ مالا
أجعلُ الساعدَ اليمينَ وِسادى ... ثم أثنى - إذا انقلبتُ - الشمالا

وهو لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوبا غير الثوب الذى يستر جسده ولا مالا يكنزه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه من مغير أو ناهب، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب ثنى الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلا: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا[2]، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلّط علينا فى هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بغيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم امحُ من قلوبنا الطمع فى هذه الفانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

تنامُ وقد أُعِدَّ لك السهادُ ... وتوقن بالرحيل وليس زادُ
وتُصْبح مثل ما تُمسى مُضيعًا ... كأنك لست تدرْى ما المُرَادُ
أتطمعُ أن تفوز غدا هنيئا ... ولم يَكُ منك فى الدنيا اجتهادُ
إذا فرَّطْتَ فى تقديم زَرْعٍ ... فكيفَ يكون من عدمٍ حَصادُ

وهو يقول مخاطبا: كيف تنام وقد هُيِّئ لك سهاد، كى تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دُنياك وأنت لم تهيئ لنفسك زادا لرحلتك، وتصبح وتمسى لا تدرى من أمرك شيئا فكيف تطمع فى الفوز بقبول الله لك ورضاه عنك وأنت لم تؤد حقه من العبادة والنسك، وهل يمكن لشخص قصَّر فى رعاية زرعه أن يحصد منه شيئا. ونلتقى فى عصر أمراء الطوائف بأبى إسحق الإلبيرى، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره الطُّيْطل[3]

---

(١) زلالا: عذبا.
(٢) أسفرنا: أصبحنا.
(٣) انظر فى الطيطل وترجمته وشعره الذخيرة ٧٩٧/٢ والجذوة ٢٩٤ والبغية رقم ١٢١٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى القسم الأول من الجزء الخامس ص ١٩٥.

على بن إسماعيل الفهرى القرشى الأشبونى، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين سمح القريحة، مشاركا فى الحديث والفقه، أمضى فى ذلك صدرا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم فى معانيها أشعارا رائقة وضروبا من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه رابطة[١] فى رقعة من بستان له على بحيرة شقبان عُرفت برابطة الطَّيْطَل ولزم بها العبادة والنسك إلى أن توفى. ويقول ابن بسام: إن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبى العتاهية فى زمانه، ويذكر إنه نظم الدرّ المفصَّل فى الزهد، ومن نظمه:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإنَّ جِرابَ البَطْنِ يكفيك ملؤهُ ... ويكفيك سَوْءاتِ الأمور اجتنابُها[٢]
ولاتك مِبْذالاً لِعِرْضِك واجتنبْ ... ركوبَ المعاصى يَجْتَنِبْك عِقابُها

وهو يوصى صاحبه بأن لا ييأس أبدا، فإذا سُدَّ عنه باب فى الرزق فليتركه إلى باب آخر ينفتح له، وليكفه كفاف القوت فإن وعاء البطن حسبه أن يمتلىء، وما زاد عن ذلك لا يحتاجه الإنسان، وليغنه عن الأمور السيئة أن يجتنبها، حتى لا يعرِّض نفسه لعقاب، ولْيَصُنْ عرضه وشرفه ويجتنب المعاصى حتى لا تصيبه أى عقوبة. ويقول:

الموتُ يرعاك كلَّ حينٍ ... فكيف لم يَجْفُكَ المِهادُ
ما حالُ سَفْرٍ بغير زادٍ ... والأرضُ قَفْرٌ ولا مَرادُ[٣]
فابْنِ بها للتَّقى بُروجًا ... تَأمَنْ إذا رُوِّع العِبادُ

وهو يقول إن جرس الموت يدق فى كل حين، فكيف لا تُحْيى الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ربك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر فى صحراء مجدبة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذِ التقى والورع عُدَّتك تأمن حين يعصف بك الموت الذى لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنما آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية فى ظلمة الليل إلى خرق كثقب الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبِّحة ربها، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

---

(١) الرابطة: بيت للعبادة.
(٢) الجراب: وعاء الزاد.
(٣) مراد بفتح الميم: مَرْعى.

ووُلد فى عصر الطوائف سنة ٤٤٠ بكار[١] بن داود المروانى، ولحق عصر المرابطين وعاش فيه فترة غير قصيرة، مولده فى شنترة من بلدان أُشْبونة بغربىِّ الأندلس، درس فى قرطبة ثم استوطن أشبونة. ويروى ابن سعيد عن أبى عمرو بن الإمام صاحب سفط اللآلى فى أخبار شعراء عصره المتوفى بعد سنة ٥٥٠ أنه لقيه وكان غاية فى الزهد مطَّرحا لنفسه واستشهد فى جهاد العدو، ويقول إنه استنشده من شعره فأنشده:

ثِقْ بالذى سوَّاكَ من ... عَدَمٍ فإنَّك مِن عَدَمْ
وَانْظُرْ لنفسك قبل قَرْ ... عِ السِّنِّ من فَرْط النَّدَمْ
واحْذَرْ - وُقيت - من الورَى ... واصْحَبْهُمُ أعمى أصَمّْ
قد كنتُ فى تِيهٍ إلى ... أن لاحَ لى أَهْدَى عَلَمْ
فاقْتَدْتُ نحو ضيائهِ ... حتى خرجتُ من الظُّلَمْ

وهو يقول: ضع ثقتك فى الله الذى سوَّاك وخلقك من عدم، وفكر فى نفسك وما ينبغى أن تنهض به من عبادته قبل أن تعض على أصابعك نادمًا على ما فرطت فى جَنْب خالقك. واحذر الناس واصحبهم كأنك لا تراهم ولا تسمعهم. ويقول إنه كان فى تيهِ ضلال وظلام حالك إلى أن لاح علم الهدى فاهتدى بضيائه. ومن الزهاد لعصر الموحدين أبو الحجاج يوسف[٢] المَنْصَفى، من قرية المَنْصَف من قرى بلنسية فى شرقى الأندلس، ويقول المقرى: كان صالحًا وله رحلة حجَّ فيها، ومال إلى علم التصوف، وله أشعار حُملت عنه، منها قوله:

قالتْ لىَ النَّفْسُ: أتاك الرَّدَى ... وأنتَ فى بَحْرِ الخطايا مُقيمْ[٣]
هلا اتخذْتَ الزاد قلت: اقْصِرِى ... هل يُحْمَلُ الزاد لدار الكريم

فنفسه قالت له: أتاك الموت وأنت غارق فى الذنوب فهلا اتخذت زادًا للمعاد؟ فقال لها إن الزاد لا يحمل لدار الجواد الكريم. ومن طريف ما قيل حينئذ فى الزهد والدعوة إلى العمل الصالح قول الفيلسوف أبى بكر بن طفيل[٤]:

يا باكيًا فُرْقَةَ الأحباب عَنْ شَحَطٍ ... هلا بكيتَ فِراقَ الروح للبدنِ[٥]

---

(١) راجع فى بكار وترجمته وشعره المغرب ٤١٥/١ والنفح ٣٣٤/٣.
(٢) انظر فى أبى الحجاج المنصفى وترجمته وشعره المغرب ٣٥٤/٢ والتحفة رقم ٣٧ والنفح ٣٣٦/٣.
(٣) الردى: الموت.
(٤) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.
(٥) شحط: بعد.

نـورٌ تردَّدَ فى طينٍ إلى أجـلِ فانحاز عُلْوًا وخَلَّى الطينَ للكَفَنِ
ياشدَّ ما افْتَرَقا منْ بعدما اعتَلَقا أظُنُّها هُدْنَـةً كانتْ على دَخَنِ[1]
إن لم يكنْ فى رِضا الله اجتماعُهما فيـالَها صَفْقَـةً تَمَّتْ على غَبَنِ[2]

وهو يقول لمن يبكى على أحبابه حين يختطفهم الموت أتبكى لفراقهم ولا تبكى لما ينتظرك من فراق الروح للبدن، وكأنما كانت الروح نورًا تردد وقتًا فى طين الجسد، ثم تسامى عنه عُلْوًا وخلاًه للكفن، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجها طول الحياة، وكأنما كانت بينهما هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعهما وامتزاجهما إن لم يكن فى رضا الله كان صفقة أو بيعة خاسرة.

وتكاثر الزهاد لعهد يعقوب الموحدى وكوَّن منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه فى غزوة الأرَك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم فى الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجند، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر لهؤلاء الزهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردَّها، وتساوى عنده الفريقان وقال: لكل مذهب[3]. ومن كبار الزهاد حينئذ أبو عمران[4] موسى بن عمران المارْتُلى وهو من مارْتُلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن الأبار فى التكملة: كان منقطع القرين فى الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله فى ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدم فى قرض الشعر فى الزهد والتخويف، وكان ملازمًا لمسجده بإشبيلية، توفى سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقـولُ ولا أفعـلُ وكـم ذا أَحُـومُ ولا أنـزلُ
وأَزْجـرُ عَيْنِى فـلا تَـرْعَـوى وأَنْصَـحُ نفسى فـلا تَقْبَـلُ
وكم ذا أؤمِّـل طـولَ البَقَـا وأَغْفُـلُ والموت لا يَغْفُـلُ
وفى كـل يومٍ يُنـادى بنـا مُنادى الرحيـلِ ألا فارْحَلُوا
كأنْ بى وَشِيكًا إلى مَصْرعى يُسـاق بنـعشـى ولا أُمْهَـلُ

وهو يتلوم نفسه فكم ينوى الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المحرمات ولا تزدجر، وكم ينصح نفسه أن ترعوى

---

(١) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.
(٢) الغبن فى البيع: الوكس والخسارة.
(٣) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.
(٤) انظر فى ترجمة أبى عمران المارتلى المغرب ٤٠٦/٢ والنفح ٢٢٥/٣، ٢٩٦ والتكملة ص ٤٥٧ وتحفة القادم رقم ٥٨ والغصون اليانعة ص ١٣٥.

ولا تنتصح، وكم يؤمل فى البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يغفل، وكأنه لا يسمع منادى الرحيل، مع أنه قريبًا سيرحل، ويُحْمَل فى نعشه ولا يمهل.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب شعر الزهد الذى كان يجرى على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق فى مجراها الذى بدأت مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجنى[١]:

لم يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الحياة إقامةً ... أنَّ الحيـاةَ تنقُّـلٌ وتـرحُّـلُ
فى كل يومٍ يَقْطَعُ الإنسان مِنْ ... دُنْيَـاه مَرْحلةً ويـدنـو المَنْهَـلُ
يَحْظَى السعيدُ به بطول سعادةٍ ... وأخـو الشقاوة للشقـاوة يُنْقَـلُ
لاتَبْـكِ إشفاقًـا لما اسْتَـدْبَرْتَـه ... ولْتَبْـكِ إشفـاقًـا لمـا تَسْتقبـل

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال، فى كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن يبكى المرء إشفاقًا على ما خلَّف منها وراء ظهره وحقه أن يبكى إشفاقًا على ما يستقبله فى آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة متشبثًا بعفو الله ورحمته فى أول قصيدة بديوانه:

لقد فَتَحَ الرَّحْمٰنُ أبوابَ عَفْوِهِ ... لمنْ راجعَ الذِّكرى وأَقْبَل خاشيا
إلٰهِىَ لا تَفْضَحْ عُوارًا سَتَـرْتَهُ ... فمالىَ مأمـولٌ سواكَ إلٰهيـا[٢]
هلكتُ رَدًى إن لم أَنَلْ منك رحمةً ... تبعِّـد رَوْعـاتى وتُـدْنِى أمـانيـا
لعلَّ الذى قام الوجودُ بجوده ... يُعِيدُ بحسْنِ اللُّطْفِ حالىَ حاليا[٣]

وهو يقول إن الله - جلَّ شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشيا منيبا، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حاليا مزدانا. ويستغيث لسان الدين بن الخطيب بربه منشدًا[٤]:

---

(١) الديوان ص ٩٧.
(٢) العوار: العيب.
(٣) حاليا: مزدانا.
(٤) أزهار الرياض ١/٢٧١.

إلهَىَ بـالبيـت المـقـدَّسِ والمَـسْعَـى ... وجَمْـعٍ إذا ماالخلقُ قـد نزلـوا جَمْعـا[١]
وبالموقف المشهودِ - يارَبِّ - فى مِنى ... إذا ما أسالَ الناسُ من خوفك الدَّمْعَا
وبالمصطفى والصَّحْبِ عجِّلْ إقالتى ... وأنجِحْ دُعائى فيك ياخَيْرَ من يُدْعَى[٢]
صَـدَعْتُ وأنتَ المستغاثُ جَنـابـهُ ... أَقِلْ عَثْرتى يامَأْمَلِى واجْبُرِ الصَّدْعـا[٣]

وهو يتوسَّل إلى الله بمقدساته: ببيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة فى الحج وبجمع أو المزدلفة مجتمع الحجاج، وبموقفهم فى مِنىً متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ بجنابه، وإنه ليستغيث به ضارعًا إليه أن يُقيله من عثرته ويجبر الصدع أو الشَّقَّ البيِّن فى أعماله. وحريٌّ بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإلبيرى.

أبو إسحق[٤] الإلبيرى

هو أبو إسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبى، من أهل حصن العقاب بالقرب من إلبيرة، ولزم فى نشأته فقيهها ومحدثها ابن أبى زمنين المتخلق بأخلاق الصالحين المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجموا له إنه كان من البكَّائين الورعين الخاشعين، ويقول ابن الأبار فى التكملة إن أبا إسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على أنه جلس مجلسه لإفادة الطلاب فى إلبيرة. وخُرِّبت سريعًا فى عهد زاوى بن زيرى الذى اتخذ غرناطة دار إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة، وهاجر إليها أبو إسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه ظل بها يروى لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبى زمنين. ونرى أبا الحسن على بن محمد بن توبة حين يتولى القضاء لباديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا إسحق كاتبًا له. واصطحبه معه إلى المرية حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير

---

(١) جمع: المزدلفة.
(٢) الإقالة للشخص: العفو عنه والصفح والإعفاء.
(٣) صدعت: جهرت. الصدع: الشق والكسر.
(٤) انظر فى أبى إسحق وترجمته وشعره الحميدى فى الجذوة والضبى فى البغية ص ٢١٠ والتكملة لابن الأبار (البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب ١٣٢/٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان فى مدريد غرسية غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع دمشق).

زهير الصقلبى أميرها، مما يدل على حسن منزلته عند القاضى وأنه ظل كاتبًا له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النغريلة اليهودى وزير الأمير باديس لتسلطه- مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود- على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمرًا من باديس بنفى أبى إسحق من غرناطة إلى إلبيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه فى العقاب. وتوفى إسماعيل بن النغريلة، وخلفه فى وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضج الناس، وكان أبو إسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى فى أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، وردّدها الناس فى الشوارع، وسرعان ما نشبت لسنة ٤٥٩ ثورة ضارية على اليهود ألمنا بها فى حديثنا عن الهجاء، وكان أبو إسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فلبّى نداء ربه فى نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو إسحق عن أستاذه ابن أبى زمنين مصنفاته فى الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضًا مصنفاته فى الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حمله عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد فى نفسه مبكرًا، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها فى نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: «كان من أهل العلم والعمل شاعرًا مجودًا وشعره مدون وكله فى الحكم والمواعظ والأزهاد» ويقول ابن سعيد: «له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها» وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصعة وخواطر منوعة تمس القلوب بما تحمل من فيض المشاعر الدينية، وكأنما يستمد من نبع حماسى يتدفق فى عذوبة. والديوان يستهل بتائية فى مائة بيت وسبعة يفتتحها بقوله:

تـفـتُّ فَـوْادَك الأيـامُ فَـتًّـا ... وتَنْحَتُ جِسْمَك الساعاتُ نَحْتا
وتـدعوك المَنُـونُ دُعاءَ صِـدْقٍ ... ألا ياصاحِ: أنتَ أُريـد أنتا

ويمضى أبو إسحق فى القصيدة بهذه الصياغة والمعانى التى تؤثر فى الأفئدة تأثيرًا يملك على قارئه وسامعه كل شىء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعاقل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينام ويستغرق فى نومه حتى إذا وافاه الموت انتبه بعد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوى، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقى هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا بمال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها تسوء حقبة وتسر وقتًا، ويحبها الإنسان مع أنه مسجون فيها وهل يحب أحد سجنه، ولا يغره طعامه فيها فستأكله حطامًا، وكل يوم يشهد فيها دَفينًا، وهو لم يخلق ليعمرها،

إنما خلق ليعبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به فى أخراه، وينصحه أن يلازم قرع باب الله فسُيْفَتح له يومًا، وينشد:

فلو بكتِ الدِّما عَيْناك خَوْفًا ... لذَنْبك لم أقلْ لك قد أَمِنْتا
ومَنْ لك بالأمان وأنت عبدٌ ... أُمِرْتَ فما ائتمرْتَ ولا أطعتا
وتُشْفق للمصرِّ على المعاصى ... وتَرْحَمُهُ، ونفسَك ما رَحِمْتا
تَفِرُّ من الهَجِيرِ وتتَّقيهِ ... فهلَّا عن جهنَّم قد فَرَرْتَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالغ فى بكائه حتى بكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصى ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجبٌ عجابٌ أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفى قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعاملينا بكل قسوة ودون أى شفقة، وفرضٌ على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوقك وبغضك أشد البغض. ودائما ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوِّف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة: خمسة وثلاثون بيتا ختمها جميعا بكلمة النار وفيها يقول:

ويلٌ لأهلِ النَّارِ فى النَّارِ ... ماذا يُقاسون من النَّارِ
تنقدُّ من غَيْظٍ فتَغْلِى بهمْ ... كمِرْجَلٍ يَغْلِى على النارِ

ويستمر قائلا: لا تقبل التوبة فى النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المُهْل فيها، ويطعم الزقوم، وتتدافع سيول النار فى القصيدة حتى تصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبى إسحق المعافاة والعتق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة على هذا النحو:

يا أيها المُغْتَرُّ بالله ... فِرَّ من الله إلى الله
ولُذْ به واسْأَلْهُ من فَضْلِه ... فقد نَجَا مَنْ لاذ بالله
وقُمْ له والليلُ فى جُنْحِه ... فحبَّذا من قام لله
واتْلُ من الوَحْىِ ولو آيةً ... تُكْسَى بها نُورًا من الله
وعَفِّرِ الوَجْهَ له ساجِدًا ... فعزَّ وَجْهٌ ذلَّ لله

وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فِرَّ من عقابه إلى ثوابه والجأ إليه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجَّد فى آناء الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبغ الله نورها عليك، ومَرِّغ وجهك فى العَفْر ووجه الأرض ساجدا لربك متذللا له، فعزَّ وجه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضى القصيدة بهذه الروعة فى الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضىء جوانبه، وتنزل منه منزلا محكما.

(ب) شعراء التصوف

ألمنا فى الفصل الأول بنشأة التصوف فى الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع فى عقيدته بين التصوف على طريقة ذى النون المصرى كما يقول ابن الفرضى وبين آراء المعتزلة فى القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آى الذكر الحكيم والأحاديث النبوية.[1] وقاوم عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مرَّ بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبى عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتنة فى كثير من الصدور وظل لها أنصار فى عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مرَّ فى غير هذا الموضع - إسماعيل الرُّعَيْنى.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفى استظهر فى وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر[1] أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيرى الأصولى المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبى الذى روى عنه تآليفه «إنه كان متكلما دقيق النظر عارفا بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة». ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة إلبيرة كان دائرًا عليه مع زهده وورعه، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بإلبيرة حتى خرَّبتها قبيلة صنهاجة فى عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره

---

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (طبع مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(١) انظر فى أبى عمر أحمد بن عيسى الإلبيرى وترجمته وشعره الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها والمغرب ٩٥/٢ والصلة رقم ٨٩ وقد أسنَّ تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبى واشتهر بالعلم والفضل، توفى سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة، وسنلم بها فى الفصل التالى، وينشد له ابن بسام:

شربتُ بكأس الحُبِّ من جَوْهَرِ الحُبِّ ... رَحِيقًا بكفِّ العَقْل فى رَوْضَةِ الحبِّ
وخامَرَ ماءَ الرُّوحِ فاهتزَّتِ القُوَى ... قُوَى النَّفْسِ شوقا وارتياحا إلى الرَّبِّ
ونــادى حَثِيثًا بــالأنين حنينُهـا ... إلهى إلهى مَنْ لعبـدك بالقُـرْبِ
وخــاطبـه وحْيًـا إليــه مليكـهُ: ... سأكشفُ - ياعَبْدى لعَيْنك - عن حُجْبى
فأعلن بالتسبيـح: مثلك لم أجِدْ ... تعاليتَ عن كفءٍ يكافيك أوصَحْب

وهو يقول إنه شرب فى روضة الحب الإلهى رحيقا مصفًى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنّت قوى نفسه شوقا إلى مشاهدة ربه، ونادى - وأنّ فى ندائه - متلهفا على قربه من ربه، وتجلّى له الله رافعا ما بينه وبين عبده من حجبه، فسبّح بحمده منزها له عن أن يكون له كفء أو صحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ - ﴿أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾. والتصوف فى الأبيات - كما ذكر تلميذه أبو المطرف - تصوف سنى، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذى يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفى. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال فى مثل قوله:

يا مُحْدِثاً للكلِّ كنتَ ولم تَزَلْ ... وكـذاك رَبِّى لايزالُ بـلا مكانْ

وقوله:

جَلَّت صفـاتُ جلالِـه، فجلالُـه ... قد جَلَّ عن تَحْديدِ كَيْفَ ومَنْ وما

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحدّه مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويذكر آسين بلاسيوس - ويتابعه بالنثيا - أن مدينة المرية على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس أصبحت فى القرن الخامس الهجرى - بتأثير آراء ابن مسرة - مركزا مهما من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبيرى الصوفى وأبو العباس بن العريف[1]، وما ذكرناه آنفا عن أحمد بن

---

(١) انظر فى ذلك بالنثيا ص ٣٢٩ وما بعدها وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفا التفتازانى (طبع دار الكتاب اللبنانى) ص ٧٦.

عيسى الإلبيرى المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حُرِّف عند بلاسيوس، فأصبح محمدا بدلا من أحمد، ونفس لقبه الإلبيرى يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من إلبيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مرَّ بنا، وكان من أصحاب التصوف السنى بشهادة أشعاره وتلميذه أبى المطرف الشعبى. أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقا غير أنه لم يكن من أصحاب التصوف الفلسفى على نحو ما سيتضح فى ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره فى إشبيلية ابن[١] بَرَّجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمى المتوفى سنة ٥٣٦ وفيه يقول ابن الأبار: «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد فى العبادة وله تآليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنى» وله فى التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم[٢] أحمد بن قسى، ويقول ابن حجر فى لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف فى المرية، وعاد إلى موطنه فى مارتُلة بقرب باجة فى غربى الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين فى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ثار عليهم مع مُريديه وغلب على شِلْب ولبْلة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل فى طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقُتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر إليه - كما ينسب إلى ابن بَرَّجان - تحريفهما لمعانى النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر، وله كتاب خلع النعلين وشرَحه فيما بعد ابن عربى. وكان تصوفه هو وابن بَرَّجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفا سنيا، إذ لم ينسب إليهم جميعا مترجموهم كلاما فى وحدة الوجود. وفى رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. وممن اعتنقها حينئذ أبو عبدالله الشوذى الإشبيلى الملقب بالحلوى، ولى القضاء بإشبيلية فى دولة الموحدين، ثم خلص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود[٣]، وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالقى المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: «كان فقيها مشاورًا غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تآليف منها شرح الإرشاد فى علم الكلام

---

(١) انظر فى ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاكر فى الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١٣/٤.

(٢) راجع فى ابن قسى لسان الميزان ٢٤٧/١ وبالنثيا ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٣) انظر فى الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١ - ٧٥.

لأبى المعالى الجوينى إمام الحرمين، وكتاب فى مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول فى غير بلد، وكان يعتنق رأى أستاذه فى وحدة[١] الوجود.

ونلتقى بمحيى الدين بن عربى، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخصه بترجمة قصيرة، وظهر فى إثره ابن سبعين[٢] عبد الحق العكى المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب فى بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر فى أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر فى كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعبَّاد، وتصادف أن أرسل فردريك الثانى صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية آملا منهم فى الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتماما واسعا، وأكبَّ حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له فى التصوف عقيدة ظل يدافع عنها بقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيَّقوا عليه الخناق غادر سبتة إلى بجاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماؤها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما يبدو - فى مصر، فغادرها فى أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفى سنة ٦٦٩ وبها عُقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبى نُمَىّ محمد الأول (٦٥٤ - ٧٠٢ هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبدّ العارف وسماه صاحب الفوات: «ما لابد للعارف منه» وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات فى آداب السلوك والرياضات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التى يصور فيها معانى الفقر الصوفى وآدابه، وله رسائل فى علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تابعه فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتهمنا عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطا بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين

---

(١) راجع فى ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة فى الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (انظر الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ١١٠٦/٣

(٢) انظر فى ابن سبعين فوات الوفيات ٥١٦/١ والبداية والنهاية ٢٦١/١٣ ولسان الميزان ٣٩٢/٣ والنفح ١٩٦/٢ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى ٣٢٦/٥ وشذرات الذهب ٣٢٩/٥ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفا التفتازانى.

الكون والسموات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء فى كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فالله فقط وليس فى الكون سواه، وفى ذلك يقول فى كتابه الإحاطة:

من كان يُبْصر شأنَ الله فى الصُّوَرِ ... فإنَّه شاخصٌ فى أَنْقَص الصُّوَرِ
بل شأنهُ كَوْنُه، بَلْ كَوْنُه كُنْهُهُ ... لأنَّه جملةٌ من بَعْضِها وَطَرِى
إيهٍ فـأَبْصـرَنى إيـهٍ فـأُبصِـرُهُ ... إيهٍ فلِمْ قلتَ لى: ذا النَّفْعُ فى الضَّرر

والأبيات تحمل فكرته، فالله تُرى صوره فى كل شىء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما فى الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبثة فى الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الحنيف مما جعل العلماء والفقهاء فى عصره وبعد عصره يردون عليه ردودا عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقة. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظاهرا وباطنا وأنه ينبغى أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. وممن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششترى الصوفى المعروف، وسنرى فى ترجمتنا له أنه ينفصل عنه فى اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنما بلغت هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعا فى الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة – وخاصة فى الأندلس والمغرب – تعتنق التصوف السنى.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد[1] الرُّنْدى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزى المولود بُرْندة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكرا وتجوَّل فى بلدان المغرب، وأقام فى سلا على المحيط سنوات طويلة ملازما للشيخ الزاهد الصوفى ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحول عنه إلى فاس فاختير فيها إماما وخطيبا لجامع القرويين، ويقول صاحب نفح الطيب إنه كان صوفيا علىَ طريقة الشاذلية، وهى من طرق التصوف السنى، وفى الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندرى. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندى كان شاذليا أن أهم مصنفاته شرحُه كتابَ الحِكَم لابن عطاء الله السكندرى، وهى أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض

---

(١) انظر فى ابن عباد الرُّنْدِىّ الإحاطة ٢٥٢/٣.

الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أَشْرِبتْ منازع التصوف السنى، وينعكس ذلك عنده فى بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهى جميعا إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره فى الكتاب وحدها بل أيضا على ما يماثلها فى ديوانه: «الصيِّب والجهام والماضى والكهام». وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أصداء صوفية، لاتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجرى فى كل بلد وكل دار. وحرىٌّ بنا أن نقف قليلا عند ابن العريف وابن عربى والششترى.

ابن[1] العريف

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجى الأندلسى، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ وبها كان منشؤه ومرباه حفظ القرآن الكريم - مثل أترابه - فى صباه، وعكف فى شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ فى التفسير والحديث النبوى والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب فى المرية ثم فى سرقسطة، ووَلِىَ الحسبة ببلنسية ويقول ابن بشكوال: «كانت له مشاركة فى أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجَمْع القراءات واهتمام بطرقها وحَمَلتها». وأكبَّ على قراءة كتب التصوف، وإذا هو يصبح صوفيا كبيرا، ولا يكتفى بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب[2]، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: «محاسن المجالس» وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفى نفس السنة نشر عنه دراسة فى مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها فى أعماله المختارة، وعُنى الدكتور الطاهر مكى بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه «محاسن المجالس» ويحلله تحليلا دقيقا ملاحظا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد فى كل ما عدا الله ومحبته، بما فى ذلك الزهد فى المنازل الصوفية العشرة، وهى المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد فى شىء، لأن الصوفى لا يتعلق

(١) انظر فى ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبغية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والتحفة لابن الأبار رقم ٨ ومعجم الصدفى ١٤ والمغرب ٢١١/٢ والنفح ٢٢٩/٣ و ٣٣١/٤ وراجع كتاب دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة للدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة آسين بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.

(٢) ذكر المقرى من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنابع الأسرار.

إلا بربه غير مفكر فيما سواه، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصحبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدَّره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء فى تحقيق شيء، ولا شوق إلى أى شيء، إذ الصوفى لا يرجو ولا يشتاق إلا ربه: ولا شكر إذ الصوفى لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة. ومنزل واحد يتعلق به الصوفى هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أى شيء سواه، يقول: «إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون الصوفى قائما بإقامة الحق له، محسا بمحبته له، ناظرا بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تُناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصف بنعت أو تنسب إلى وقت». وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفى الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أى شيء من فكر أو جسم سوى الفناء فى الله، وهو بكل ذلك صوفى سنى، ومن الخطأ الظن بأن فى تصوفه شية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفى قوله:

سلُوا عن الشَّوْقِ مَنْ أَهْوَى فإنَّهُمُ ... أَدْنى إلى النَّفْسِ من وَهْمى ومن نَفَسِى
مازلتُ - مذ سكنوا قلبى - أَصُونُ لهم ... لَحْظِى وسَمْعى ونُطْقى إذ هُمُ أُنسِى
فمَنْ رسولى إلى قلبى ليسألَهُم ... عن مُشكلٍ من سؤالِ الصَّبِّ مُلْتَبِسِ
حَلُّوا الفؤاد، فما أَنْدَى! ولو وَطِئوا ... صَخْرًا لجادَ بماءٍ منه مُنْبَجِسِ[1]
وفى الحَشَا نزلوا والوهمُ يَجْرَحُهُمْ ... فكيف قَرُّوا على أَذْكَى من القَبَسِ[2]
لأنهضنَّ إلى حَشْرِى بحبِّهِمُ ... لا بارَكَ الله فيمن خانهم فَنَسِى

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظه وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من يبلغهم ما فى قلبه من صبابته وحبه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو وطئوا صخرا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا فى حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم - والوهم يجرحهم - أن يسكنوا فى ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا بعهدهم وحبهم لا ينساهما أبدا، ويقول:

قِفَا وقفةً بين المحصَّبِ والحِمَى ... نُصافحْ بأَجْفان العيونِ المَغَانيا[3]

---

(١) منبجس: منفجر.
(٢) قرّوا: سكنوا واستراحوا.
(٣) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. المغانى: المنازل.

ولا تَنْسَيَا أن تَسْأَلَا سَمُرَ الهَوَى متى بات من سُمْرِ الأسِنَّة عاريا[١]
فعهدى به والماءُ ينسابُ فوقَهُ سماءٌ وماءُ الوَرْدِ ينسابُ واديا
أقامَ على أطْلالهم ضوءَ بارقٍ من الحسن لا يُبْقى على الأرض ساليا

وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوبه القدسية: بالمحصب فى منى والحمى المكى ليصافح ببصره المغانى والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذى تعرَّى من سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجرى من تحته والنفوس معلقة بما فى الأطلال من ضياء الحسن الذى لا يستطيع أحد أن يسلوه. ويقول:

تمشَّى والعيونُ لـه سـوامٍ وفى كلِّ النفوس إليه حاجَه[٢]
وقـد مُلئتْ غـلائلُه شُعـاعًـا كما مُلئَتْ من الخمر الزُّجَاجه[٣]

وهو يتغزل بمحبوبه مستخدما لغة الحب الإنسانى كما استخدمها فى الأبيات السابقة، فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعا مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلائله الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح فى الرسول الكريم سننشد منها أطرافا. وقد توفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ابن[٤] عربى

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن عربى الطائى، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة تحظى بشىء من الثراء، وانتقل به أبوه فى صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الظاهرىَّ فى الفقه، كما درس الحديث النبوى على شيوخه والآداب على معلميها وكتب لبعض الولاة، وتزوج بمريم بنت محمدبن عبدون الباجى، وكانت صالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف

---

(١) السَّمُر: شجر الطلح.
(٢) سوام: شاخصة ومتطلعة.
(٣) الغلائل: جمع غلالة: الثوب الرقيق.
(٤) انظر فى ابن عربى التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان الاعتدال للذهبى ١٠٨/٣ ونفح الطيب ١٦١/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢ والكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى فى ذكراه المئوية الثامنة لميلاده (نشر وزارة الثقافة المصرية) وابن عربى: حياته ومذهبه لآسين بلاسيوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (طبع القاهرة) وبالنثيا ص ٣٧١ وما بعدها.

والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة كثيرين، فى مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتلى الذى مرَّ ذكره بين الزهاد وأبو العباس العريانى المتصوف، ولزم نونة «فاطمة بنت ابن المثنى» الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول فى الأرض، وهو فى نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم» ثم رحل إلى المغرب واستقر فى فاس مدة سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة فى نواحى المغرب فى مراكش وغير مراكش، ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة معجبا بطريقته الصوفية. وألم بتونس وفيها صنف كتابه: «الدوائر الإحاطية فى مضاهاة الإنسان للخالق». وفى سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكين الدين أبى شجاع زاهر بن رستم الأصفهانى إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح فى الأحاديث النبوية للترمذى، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربى حين رآها ونظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» متخذا منها ومن غزله فيها رمزا لحبه الربانى ومواجده الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: «الدرة الفاخرة» فى تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبى مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول فى البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجادله فقهاؤها فيما يفهم فى أقواله من فكرة وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبى حماه منهم. ويتجه إلى الأناضول ويعجب به كيكاوس ملك قونية، ويؤلف مصنفيه: «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار». وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقى بشهاب الدين السهروردى الصوفى السنى، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحا على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعانى الصوفية التى تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويحتفى به سلطانها الظاهر غازى، ويؤلف كتابه: «الحكمة الإلهامية». وفى سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٣٨ وفيها ألف «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وأذاع ديوانا له، وظل مشغولا بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربى مكثرا من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعمائة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينفث به الروح القدس فى الروع

ويختص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته فى وحدة الوجود، وهى التى ملأت كتاباته وأشعاره بالألغاز، واختلف إزاء عباراتها العلماءُ من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطنا سوى ظاهرها وتأوَّلها، ومنهم من قال بمروقه من الدين الحنيف لمثل قوله: «إن الحق المنزَّه (أى الله) هو الخلق المشبَّه» و «إن العالم صورة الله وهوية الله». وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافا له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهى والشرائع على ما هى عليه ويأمر فى السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات»[1]. ويمكن أن تؤوَّل العبارتان السالفتان اللتان جعلتا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببهما أنه إنما يريد أن الله المنزَّه عن الشبه بالخلق يتجلَّى فيهم كما يتجلى فى العالم بتكوينه له وخلقه. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التى إن أُخذت على ظاهرها ظُنَّ به المروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حُملت على الإيمان والعرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذى السالف صحيح مسلم وصحيح البخارى، وأجاز له السلفى فى الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزى فى بغداد وابن عساكر فى دمشق، وهم جميعا من كبار المحدثين فى عصره سوى شيوخ كثيرين. وبجانب هذه الشعبة الكبيرة فى عقيدته: شعبة وحدة الوجود تتراءى شعبة ثانية كبيرة هى شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها مبكرا فى ديوانه: «ترجمان الأشواق» ومن يقرؤه حسب ظاهره يظن أنه غزل صَبٍّ عاشق لنظام - كما يقال - فتاة الشيخ مكين الدين إمام مقام إبراهيم فى الحرم المكى، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلالها ومراشفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذرى على شاكلة قوله:

مَرِضى من مَريضة الأَجْفانِ ... عَلَّلانى بِـذِكْـرِهـا عَلَّلانى
بـأبى طفلةٌ لَعُـوبٌ تَهَـادَى ... من بنات الخُدُورِ بين الغَوَانى
طلعتْ فى العِيانِ شمسًا فلمَّا ... أَفَلَتْ أَشْرَقَتْ بأُفْقِ جَنـانِى
بِـأبِى ثُمَّ بِى غـزالٌ رَبِيبٌ ... يَرْتَعِى بَيْن أَضْلُعِى فى أمانِ

فهو محب موجع الفؤاد أو هو مريض مرضا لا يرجى له منه شفاء لما وقع فى قلبه من

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (طبع دار المنار) ١/١٧٦.

حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التى رآها تتبختر بين الغوانى الجميلات. وحين رآها ظنها شمسا فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جَنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شىء من أمره. وإنه ليفدى بروحه هذا الغزال المصون الذى يرعى بين أضلعه فى قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصبابة لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتاع مايزال ابن عربى يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هى نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير فى الديوان منشدا:

كلُّ ما أذكرهُ منْ طَلَلٍ ... أو ربوعٍ أَوْ مَغَانٍ كلُّ ما
أو نساءٍ كاعِباتٍ نُهَّدٍ ... طالعاتٍ كشموسٍ أَوْدُمَى
صفةٌ قُدْسِيَّةٌ عُلْوِيَّةٌ ... أعلمتْ أنّ لصدقى قدَمَا
فاصْرِفِ الخاطرَ عن ظاهِرها ... واطلبِ الباطنَ حتى تَعْلَما

وهو لا يذكر فى القصيدة الطلول والربوع والمغانى أو المنازل والنساء المشرقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضا: نجدًا وتهامة والسحب تبكى والزهر يبتسم والمواضع النجدية مثل الحاجر وورق الحمام وأنينها والبروق والرعود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنقا والرُّبى والرياض والغياض، وكل ذلك حين يذكره صفات قدسية علوية يتخذها رموزا لبيان حبه الربانى وأسراره وأنواره فى فؤاده، وهو حب يتسع به حتى ليشمل أصحاب الديانات جميعا، إذ يقول:

لقد صار قَلْبِى قابلا كلَّ صُورَةٍ ... فَمَرْعىً لِغِزْلانٍ ودَيْرٌ لرُهْبانِ
وبَيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ ... وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدين الحبِّ أنَّى تَوَجَّهَتْ ... رَكائبُهُ فالحبُّ دِينى وإيمانى

فدينه الحب الذى يسع جميع الديانات السماوية والوثنية، ولعل هذه شطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلا عن أن يكون دينها المحبة. وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجدهما فى شعره كقوله فى إحدى موشحاته:

يقول والوَجْدُ ... أضناه والبُعْدُ ... قد حيَّرهْ
وهُيِّم العَبْدُ ... والواحد الفَرْدُ ... قد خَيَّرَهْ
فى البَوْحِ والكتمان ... والسرِّ والإعْلانِ ... فى العالَمين

وفى الحق أنه كان صوفيًّا كبيرًا، وقد لقبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

الششترى[١]

هو أبو الحسن على بن عبد الله النميرى، ولد بقرية شُشْتر من عمل مدينة وادى آش فى إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثراء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوَّده، وعُنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكى، حتى نُعت بالفقيه وعروس الفقهاء. وأخذ يكبُّ فى شبابه على دراسة التصوف ولقَاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثَّل كثيرا من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم فى السياحة والتجول فى البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولا فترة غير قليلة، تلمذ فى أثنائها لأبى مدين المتوفى سنة ٥٩٢ وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفيا سنيا، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - فى البلدان المغربية، وملأت - فيما يبدو - نفس الششترى فاعتنقها. ولقى ببجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبى مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فسِرْ إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهَلُمَّ إلىّ. وظل طويلا معجبا بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه فى بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل فى طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانية الصوفية (يريد رقعهتم البالية) وحملت فى يدك بنديرًا (يريد علم الدراويش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل فى السوق ثلاثة أيام يغنى بخواطر المتصوفة منشدا:

شويخ من أرض مكناسْ ... فى وسط الأسواق يغنى[٢]
اشْ علىّ من النـــاسْ ... واشْ على النـاس منى

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرَّف فيها على الشيخ أبى الحسن الشاذلى

---

(١) انظر فى الششترى وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفح الطيب ١٨٥/٢، ٢٠٥ والإحاطة ٢٠٥/٤ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الانتهاج للتنبكتى والرسائل الكبرى لابن عباد الرندى (طبع فاس) ص ١٩٧ وراجع فى أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. على النشار (طبع الإسكندرية).

(٢) مكناس: مدينة بالمغرب بينما بجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبي العباس المرسى وحمل عنها طريقتها، وبذلك يعترف فى بعض أزجاله قائلا: «شيوخى هم الشاذليَّه» وحج مرارا وكان كلما حجَّ طوَّف فى العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقى ابن إسرائيل تلميذ ابن عربى فى الشام سنة ٦٥٠ كما لقى أصحاب عمر السهروردى البغدادى المتصوف السنى المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفى أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفى بقربها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقاؤه لابن سبعين وإعجابه به وذكره لاسمه فى موشحاته وأزجاله مثنيا منوها سببا فى أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبى مدين المغربى الصوفية السنية، وانتقل منها فى مصر إلى طريقة أبى الحسن الشاذلى الصوفية السنية، فهو صوفى سنى، وفيه يقول الغبرينى: «الشيخ الفقيه الصوفى الصالح العابد، من الفقراء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية» ونوَّه به ابن عباد الرندى الشاذلى فى رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالبًا منا الزيادةَ لا الحُسْنَى ... بفكْرٍ رَمَى سَهْمًا فعدَّى به عَدْنا[1]

إذ نقل عنه التنبكتى فى كتابه نيل الابتهاج نعته له بقوله: «الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقْرَأ عليه القرآن والسنن، عارفا بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق». ويقول المقرى فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجردين وبركة لابسى الخرقة الصوفية.. كان مجوِّدًا للقرآن قائمًا عليه عارفًا بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال فى الآفاق ولقى المشايخ، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنَّف كتبًا مختلفة، منها: «العروة الوثقى» و«المقاليد الوجودية فى الأسرار الصوفية» و«الرسالة القدسية فى توحيد العامة والخاصة» و«المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية». ومن شعره قوله:

لقد تِهْتُ عُجْبًا بالتجرُّد والفَقْر ... فلم أنْدَرِج تحتَ الزمانِ ولا الدَّهْرِ
وجاءتْ لقلبى نَفْحَةٌ قُدُسيَّةٌ ... فغِبتُ بها عن عالم الخَلْق والأَمْرِ
وصلتُ لمن لم أنفصلْ عنه لحظةً ... ونزَّهت من أعنى عن الوصل والهَجْرِ

(١) الحسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

وما الوَصْفُ إلا دونه غيرَ أننى أريدُ به التشبيب عن بَعْض ما أَدْرِى
وذلك مثلُ الصَّوْتِ أيقظَ نائمًا فأبْصَرَ أَمْرًا جلَّ عن ضابطِ الحَصْرِ
فقلتُ له الأسماءُ تَبْغِى بَيانَهُ فكانتْ له الألفاظُ سِتْرًا على سِتْرِ

وهو يتيه عجبًا وزهوًا بالاجتهاد فى العبادة والإمامة لفقراء الصوفية، فلا يهمه أى شىء مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلتُ إلى رضوان الله ومحبته، ويستدرك فإنه غنىٌّ عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشبيبى وغزلى إلا بعض ما أشعر به، وكأنى مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يجلّ ويعظم عن الحصر، وحتى أسماؤه الحسنى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأنما الألفاظ تضيف دونه حجابًا إلى حجاب، وله فى إحدى موشحاته:

خلعتُ عِذار عشقى فى غرامى وهِمْتُ وقد حَلا عندى هُيامى
بمن أَهْوَى وكاسات المُدامِ
مذهبى دنِّى لائمى دَعْنِى الهوى فَنِّى
ببَذْلى فى الهَوَى روحى ومَالِى عَشقتُ فما لعُذَّالى ومالى

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم فى غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه، لا يستحى ولا يخجل، إذ جمح به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشى بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن، وهو ليس شرابًا عاديًّا بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ دنَّه مذهبا له حتى يُبْهج روحه وقلبه بهذا الحب الربانى الذى بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعذَّال اللائمين وماله. وقد اندلع فى فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دَنٍّ قدسى عظيم. ومن قوله فى موشحة ثانية:

يا حبيبِى بحياتِكْ بحياتِكْ يا حبيبِى
رِقَّ لى وانْظرْ لحالى أنتَ أَدْرَى بالذى بِى
أنتَ دائى ودَوَائى فتلطَّفْ يا طبيبى

وهى كلمات تكاد تطير من الفم طيرانًا لخفتها وعذوبتها وسلاستها. ولهذه السلاسة والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله فى حلقات المتصوفة من شاذلية وغير شاذلية، ونوَّه بها جميعًا مترجموه، يقول الغبرينى: «شعره فى غاية الانطباع والملاحة،

وتواشيحه ونظمه الزجلى فى غاية الحسن» ويقول ابن عباد الرندى: «فى موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة».

(جـ) شعراء المدائح النبوية

طبيعى أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم فى تقواه ونسكه وورعه وامتثاله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر فى الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذى أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنابذين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خانعين. وهو ماجعل غير شاعر أندلسى يفزع إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة فى نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجرى حتى أصبح المديح النبوىّ غرضًا كبيرًا من أغراض الشعر الأندلسى، ونحن نجده فى هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ وله فى مخاطبة مكة مهبط الوحى النبوى ورسولها الكريم شعر[١] طريف، وبالمثل نجده على لسان أبى عبدالله بن أبى الخصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرثيتان[٢] فى مقتل الحسين بكربلاء. ويسوق المقَّرى فى الجزء الأخير من كتابه نفح الطيب لابن العريف الصوفى أشعارًا نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار» ومن قوله فى إحداها:[٣]

وحَقِّكَ يا مُحَمَّدُ إنَّ قَلْبِى ... يحبُّك قُرْبَةً نَحْوَ الإلٰهِ
جَرَتْ أمْواهُ حُبِّك فى فُؤادِى ... فهامَ القلبُ فى طيبِ المياهِ

فهو محب والهٌ للرسول عليه السلام، ويستمر قائلا إنه نال به فى دنياه فرحة وسرورًا، وسينال به فى أخراه جاهًا ونعيمًا إذ يحب محبوب الإله وصفيَّه، ويتذلل له فى بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذًا وملجئًا. ويختم

---

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٣ وما بعدها.
(٢) فهرست ابن خير ٤٢١.
(٣) انظر فى هذه القصيدة وتاليتها نفح الطيب ٤٩٧/٧.

المقرى اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتتح جميع أبياتها بصلاة الله على النبى الهادى العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الإلهُ على النبيِّ الهادى ... ما لاذت الأرواحُ بالأَجسَادِ
صلَّى عليه اللّهُ ما اسودَّ الدُّجىَ ... فكسَا مُحَيَّا الأُفْقِ بُرْدَ حِدادِ
صلَّى عليه اللّهُ ما انْبَلَج السَّنا ... فابيضَّ وَجْهُ الأرضِ بعد سَوادِ

ويظل يدعو الله أن يصلى على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصَّه بالنور والإرشاد وخَتَمَ النبوةَ كتابُه الهادى. ولا تتضح عند ابن العريف فيما ساقه له المقرى من مديح نبوى فكرة الحقيقة المحمدية التى وجدت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما ردده بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول فى المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفيًّا سنِّيًّا. ونلتقى بأبى الحسن بن لبَّال وتشوقه[١] الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره[٢] أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأبين الحسين، ولابن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة[٣] فى مئات من الأبيات فى مديح الرسول. ونلتقى بمعاصره أبى زيد الفازازىّ وسنخصه بكلمة.

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة فى حجر النصارى الإسبان الشماليين تكاثر المديح النبوى إذ اتخذه الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوى الشريف واصفين ما يعانيه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل فى الفصل التالى مع الترجمة لابن الجنان المتوفى فى عشر الخمسين وستمائة، وقد أنشد له المقرى فى الجزء السابع من نفح الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بمخمس[٤]، بديع جعل شطره الخامس: «صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليما» وفيه عرض عرضًا رائعًا سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم[٥] بن سهل الإشبيلى، وكان يهوديًّا

---

(١) المطرب ص ٩٠.
(٢) المغرب ٢/٢٦٠.
(٣) سماها الدرة السَّنية فى المعالم السُّنية. انظر التكملة ص٣٢٥.
(٤) نفح الطيب ٤٣٢/٧.
(٥) انظر فى ابن سهل مصادره فى ص٣٠٦ ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر ببيروت.

كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلى المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن فى بواكير شبابه إسلامه، وكان شاعرًا ماهرًا، وله ديوان طبع مرارًا، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقًا إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرى منظومة[١] نبوية بديعة لعله استلهم فيها مخمس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذى تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقىَ الحامى إلى ذاك الحِمَى
فمتى أقضيه غرامًا مغرما
ومتى أعانقه صعيدًا مكرما
بضميرِ كل موحِّدٍ مَلْثُوما صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

ولأبى الحسن الرُّعَيْنى الإشبيلى المتوفى سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان ربَّانيتان[٢]. ولحازم القرطاجنى المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى مدحتان[٣] نبويتان بَنَى أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبنى الثانية بنفس النظام: شطر له وشطر من لامية امرئ القيس: «ألاعم صباحًا أيها الطلل البالى». ويلقانا فى كتاب الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية[٤] لغير شاعر مثل ابن الصائغ وأبى جعفر بن جُزَىّ، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجنى الثانية.

وكان قد أصبح تقليدًا فى غرناطة أن يُحْتَفل بالمولد النبوى احتفالاً رسميًا كل عام وأن تُلْقَى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، وللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهى مسجلة فى ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفح الطيب، ودائمًا يبدؤها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينهى المولدية غالبًا بمديح السلطان الذى أقيم الاحتفال النبوى فى عهده، ومن تصويره لحنينه الملتاع إلى الاكتحال برؤية القبر الطاهر قوله:

إذا أنت شافهتَ الديار بِطَيْبَةٍ وجئتَ بها القبرَ المقدَّسَ واللَّحْدا
فَنُبْ عن بعيد الدار فى ذلك الحِمَىَ وأَذْرِ به دمعًا وعَفِّرْ به خَدَّا

---

(١) النفح ٤٤٥/٧.
(٢) الذيل والتكملة للمراكشى القسم الأول من الجزء الخامس ص ٣٦٤.
(٣) أزهار الرياض ١٧٨/٣ وما بعدها.
(٤) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩، ٢٥١، ٣٠٣.

وكان يعاصره ابن جابر الأندلسى وسنخصه بكلمة ، وعاصرهما ابن خاتمة وفى ديوانه مدائح نبوية بديعة، وأنشد المقرى لابن زمرك مَوْلديات له فى الجزء الثانى من أزهار الرياض، ومن قوله فى إحداها مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأنت حبيبُ الله خـاتَمُ رُسْلِهِ وأكرمُ مخصوصٍ بزُلْفى ورضوانِ
وأنت لهذا الكون علة كَـوْنِهِ ولولاك ما امتاز الوجود بأكوانِ
ولولاك للأفلاك لم تَجْلُ نَيِّرًا ولا قُلِّدتْ لبَّـاتهُنَّ بِشُهْبـانِ

وواضح أنه يقتبس من البوصيرى وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور فى الأفلاك، ولولاه ما سطعت فى لبَّاتها ومواضع القلائد من جيدها شهبانه وشعله النيرة، وحرى أن نتوقف قليلاً بإزاء أبى زيد الفازازى وابن جابر الوادى آشى.

أبو زيد[1] الفازازى

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى سعيد بن يَخْلُفْتن، وُلد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أكبَّ على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوى وروايته والفقه وأصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسال ينبوع الشعر متدفقا على لسانه، وعملَ فى الدواوين الحكومية، وحظى بمكانة رفيعة عند أبى إسحق والى إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة بمراكش (٥٩٢ - ٦٠٩ هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠ هـ) وعمل بدواوين عمه أبى العلاء إدريس فى ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودى بأبى العلاء - وهو فى الأندلس - خليفة للموحدين بمراكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أبا زيد للعمل فى دواوين مراكش ولباه راضيا، ولم تكد تمضى بضعة أشهر حتى لبى نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته إنه كان فاضلا سُنيا شديد الإنكار والإنحاء على أهل البدع، وكان متلبسا بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزما بذلك مع كره له وحرصه على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضا عن أبى زيد إنه كان آية الله فى سرعة البديهة وارتجال النظم

---

(١) انظر فى ترجمة أبى زيد الفازازى التكملة رقم ٥٠٧/٧ وما بعدها.
١٦٤١ والإحاطة ٥١٧/٣ ونفح الطيب للمقرى

والنثر وفورَ مادة وموالاةَ استعمال. وله فى الزهد عملان: عمل طُبع بدار إحياء الكتب العربية فى القاهرة باسم «القصائد العشرية فى النصائح الدينية والحكم الوعظية» ولعلها هى التى سماها لسان الدين المعشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: «المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة بألسنة الوجلين المشفقين، شائقة إلى مناهج السالكين المستبقين، نظمها متبرِّكا بعبادتهم، متيمنا بأغراضهم وإشاراتهم، قابضا عنان الدعوى عن مداناتهم ومجاراتهم..». والمعشرات قصائد تشتمل كل منها على عشرة أبيات فأكثر، منظومةً على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظمه فى العبادة والنسك وسماه: «المعشَّرات الحبِّيَّة» وافتتحها بقوله: «النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على ألسنة الذاهبين وجدا، الذائبين كمدا، نظم مَنْ نسج على منوالهم» وله يناجى ربه ويدعوه ضارعا:

إليك مددتُ الكفَّ فى كلِّ شِدَّةٍ ... ومنــكَ وجـدتُ اللُّطْفَ فى كــل نـائبِ
فحقِّقْ رجائى فيك ياربِّ واكْفِنِى ... شمـاتَ عدوٍّ أو إسـاءةَ صـاحبِ
وكم كُـرْبَةٍ نَجَّيْتَنى من غِمـارِهـا ... وكانتْ شَجًا بين الحَشَا والتَّرائبِ
فيـامنجىَ المُضْـطَرِّ عنـد دعـائِـهِ ... أغِثْنى فقـد سُدَّتْ علىَّ مَـذَاهِبى

وسمَّى مجموعته فى المدائح النبوية «الوسائل المتقبَّلة» وأضاف: «والآثار المسلَّمة المقبَّلة مودَعة فى العشرية النبوية» نَظْم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدَّها لما يستقبله من مدهش الأهوال، وفرَّغ خواطره لها على توالى القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - وليُّ القبول للتوبة، والمنَّان بتسويغ هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير فى جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته» ولعل هذه المجموعة هى نفسها المطبوعة فى دار إحياء الكتب العربية باسم «الوسائل المتقبلة فى مدح النبى ﷺ». وهى مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والمخمس قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله فى المخمس النونىّ عن رسول الله:

بدا قمرًا مَسْراهُ شرقٌ ومغربُ ... وخُصَّتْ بِمَثْـواهُ المدينـةُ يثربُ
وكان له فى سُدَّة النورِ مَضْرِبُ ... نجىٌّ لـربِّ العالمينَ مقـرَّبُ[1]
حبيبٌ فيدنو كلَّ حينٍ ويُسْتَدْنَى

(١) سدة النور: يريد بها سدرة المنتهى المذكورة فى سورة النجم وأن عندها الجنة التى تأوى إليها أرواح الشهداء والملائكة.

من العالَمِ الأعلى وماهو منهمُ شبيهٌ بهم فى الوصفِ زاكٍ لديهمُ
رحيمٌ بكـلِّ الخَلْق دانٍ إليهمُ نَصيحٌ لأهل الأرض حانٍ عليهمُ
أضاء لهم صُبْحًا وصابَ لهم مُزْنا[1]

وهو يقول إن الرسول ﷺ قمر استضاءت بأشعة نوره المشارق والمغارب، وخُصَّت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل فى السماء، حين صعد إليها بمعراجه، عند سِدْرة المنتهى، نجيًّا لرب العالمين مقربا إليه حبيبا، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم فى الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والعطف، بل إنه شمس يضىء الوجود صبحا وينسكب عليه غيثا غدقا. ولأبى زيد وراء هذا الديوان نبويات كثيرة أنشد منها المقرى فى النفح شذورًا، من ذلك قوله فى الرسول:

تقدَّم كلَّ العـالمينَ إلى مَدًى تظلُّ به الأَوْهامُ ظالِعَةً حَسْرَى[2]
وعفىَّ رُسُومَ الكافـرين وأهلَها فلا قَيْصَرٌ من بَعْد ذاكَ ولا كِسْرَى
وخُصَّ بتشريفٍ على الناسِ كلِّهم بنـور سماءٍ نـاقلوه عن الإِسْـرا
ترقَّى إلى السَّبْع الطِّباقِ تَرَقِّيًا حَقِيقًا ولم يَعْبُرْ سَفِينـا ولا جِسْرا
فسبحان مَنْ أَسْرَى إليه بِعَبْدِه وبُورك فى الساري وبُورك فى المَسْرَى

وهو يقول إن الرسول ﷺ تقدم عند ربه إلى مدى لا تستطيع الأوهام أن ترتفع إليه مهما صعَّدت ومهما تلهفت. وقد محا رسوم الكفار كأن لم تكن شيئا مذكورا، فلا كسرى إذ سُلبت منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قيصر فقد سُلبت الجوهرتان المتلألئتان فى تاجه: مصر والشام. وخصَّه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلا إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سدرة المنتهى يناجى ربه، فسبحان الذى أسرى بعبده. مرددا بذلك ما جاء فى أول سورة الإسراء. ويقول بورك فى الرسول الساري وفى المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد فى مديحه النبوى معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التى ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائما يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم برا بأصحابه، ويحمل مرارا على أعدائه من الملحدين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فتردَّوا فى بحار هلاك ما بعده هلاك.

---

(١) المزن: السحاب الغدق الممطر. (٢) ظالعة: عرجاء. حسرى: متلهفة.

ابن[١] جابر الأندلسى

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر الهوارى، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبى العيش فى العربية ومحمد بن سعيد الرندى فى الفقه وأبى عبدالله الزواوى فى الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطى، فكان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجَّا وعادا إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه فى سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغلغلا شماليها حتى ماردين[٢]، إذ يذكر ابن بطوطة فى رحلته عن سلطان ماردين ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضا فى الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الكفيف مادحا، فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً فى حلب وتوفى بإلبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم فى المديح النبوى، وله فيه ديوان سماه «العقدين فى مدح سيد الكونين» وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصبة فى الشعر التعليمى إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهى قصائد فى المديح النبوى، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحِلِّى - بردة البوصيرى الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحيانا لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقة فى رحلته أبو جعفر الغرناطى، واشتهرت باسم بديعية العميان وقد سمَّاها: «الحلة السِّيرا[٣] فى مدح خير الورى» وفى النفح طائفة كبيرة من نبوياته، منها مقصورة فى نحو تلاثمائة بيت نقتطف منها قوله:

إنَّ رسولَ الله مصباحُ هُدًى ... يُهْدَى بهِ مَنْ فى دُجَى الليل مَشَى
إنْ تَحْسَبِ الرُّسْلَ سماءً قد بَدتْ ... فإنَّه فى أُفْقِها نَجْمُ هُدَى
وإن يكونوا أَنْجُمًا فى فَلَكٍ ... فإنَّه من بينهم بَدْرٌ بَدَا

---

(١) انظر فى ابن جابر وترجمته وشعره نكت الهميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣/٣٣٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/٤٢٩ وشذرات الذهب ٦/٢٦٨ ونفح الطيب ٢/٦٦٤ - ٦٩٠، ٧/٣٠٢ - ٣٧٠.

(٢) ماردين: قرية بتركيا الآن.

(٣) السِّيرا: المخطَّطة خطوطا بديعة.

أحسنُ أخلاقًا من الرَّوْضِ إذا ما اختالَ فى بُرْدِ الصَّبا أوِ ارْتَدى
تَفْدِيه نَفْسى من شَفِيعٍ للوَرَى وقَلَّتِ النفسُ لَـهُ منّى فِـدَا

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالغزل وضمنها فى تضاعيف المديح النبوى كثيرا من الخواطر والحكم، وفصَّل القول فى شمائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعده للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعُدَّته وذخره لربه. وأنشد له المقرى مدحة من غرر مدائحه للرسول ورَّى فيها بسور القرآن الكريم، ويقول المقرى: لو لم يكن له فى مديحه سواها لكفى، وهى تمضى على هذا النحو:

فى كـلِّ فاتحـةٍ للقول مُعْتَـبِره حقَّ الثَّناءُ على المبعوثِ بالبَقَرهْ
فى آل عِمْرانَ قِدْمًا شاع مَبْعَثُهُ رجالُهم والنساءُ استوضحوا خَبَره
من مدَّ للناس من نُعماه مائدةً عمَّتْ فليستْ على الأنْعامِ مُقْتَصِرَه
أَعْرَافُ نُعْماهُ ماحلَّ الرَّجاءُ بها إلا وأنْفَالُ ذاك الجودِ مُبْتَـدِرَه

والطريف أنه يُحْكِم وضع اسم السورة فى مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاما رائعا على نحو ما نرى من ذكره فى هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء فى السورة، والأنعام اسم السورة وهى الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهى فى البيت جمع عرف بمعنى المعروف، والأنفال اسم السورة وهى العطايا. واطردت هذه الدقة فى استظهار أسماء السور الكريمة فى جميع أبيات القصيدة. ويُهْدى فى نهايتها أزكى صلواته للرسول وعِتْرته وصحابته، وخصوصا عشرة منهم، ويسميهم، كما يهدى أزكى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتى الرسول ﷺ ولابنته فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين، ويقول انه سيظل يهدى كل من سماهم مدائحه. وله قصيدة مطولة فى فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علَمٍ منهم فى أبياتها حظ مقسوم. ونشعر دائما عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا يتقطع، بل يتدفق تدفقا غزيرا.

٥

شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث والعون تتكاثر فى الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشامخة فى عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا فى مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسدِّدونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمدوه حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعداؤهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يفدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانتهز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن بَرْبَشْتر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتي لاردة وسرقسطة ركنى الثغور الشمالية، فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكَّلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلا بشعا، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفئدة، وكان ممن أفزعه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتهبة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول[1]:

ولقد رمانا المُشركون بأسْهُمٍ ... لم تُخْطِ لكنْ شأنُها الإصْماءُ[2]
كم موضعٍ غنموه لم يُرْحَمْ بهِ ... طِفْلٌ ولا شَيْخٌ ولا عَذْرَاءُ
ولكم رضيع فرَّقوه من أمِّه ... فلَهُ إليها ضَجَّةٌ وبُغَاءُ[3]
ولربَّ مولودٍ أبوه مُجَدَّلٌ ... فوقَ التُّراب وفَرْشُهُ البَيْدَاءُ
ومصونةٍ فى خِدْرها محْجُوبَةٍ ... قد أُبْرَزُوها ما لها اسْتِخْفَاءُ

وهو يقول إن المشركين رمونا بأسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصيح بها، ولقد هُتكت الحُرَم ونُهبت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد رُوِّع سِرْب الله وفُلَّ غَرْبه، وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع. وكان ممن استثارتهم هذه النكبة وأقضَّت مضاجعهم الفقيه أبو حفص

---

(١) الروض المعطار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٤٠.

(٢) الإصماء: القتل.

(٣) بغاء: نشدان.

عمر بن الحسن الهوزنى تِرْب المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه فى شبابه، فكتب إليه يستصرخه[١]، ليرأب الصدع ويداوى الجروح، ونظم أشعارا يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويُعْضل الداء من مثل قوله[٢]:

بَيِّتِ الشـرَّ فـلا يَسْتَـزِلُّ ... طَـرَقَ النُّوَّامَ سِمْـعٌ أزلُّ[٣]
فِثبوا واخْشَوْشنـوا واحْزَئِلُّوا ... كلُّ مارُزْءٍ سوى الدِّين قُلُّ
بَدْءُ صَعْق الأرضِ نَشْءٌ وطَلُّ ... وريـاحٌ ثـم غَيْـمٌ أَبَـلُّ[٤]
يَدُنا العليا، وهم - وَيْكَ - شُلُّ ... فِلَمَ استرعى الأعزَّ الأذلُّ[٥]
عجبُ الأيـامِ ليثٌ صُمُـلٌّ ... ذَعَـرَتْـهُ نَعْجَـةٌ إذْ تَصِـلُّ[٦]

وهو يصرخ فى كل أندلسى أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صكَّ مسامع النوام ذئب فاتك. وعليهم أن يثبوا بأعدائهم ويخشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فبدء الصواعق سحاب ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواصف مدمرة. ويحاول أن يملأ روح الأندلسيين حماسة ملتهبة، فيقول إننا كثرة غالبة ولنا العز والبأس والمنعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف دَهَى الأذلاء الأعزاء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تُفْزع نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسدا ضاريا بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الهوزنى وأضرابه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضبا لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عام حتى انقضوا على النورمانديين ونكلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغسلوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بليون وأشتوريش وغرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبدلا من أن ينتهز الفرصة التى أمكنته من عدوه أنزله ببلده فى قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومداخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح

---

(١) الذخيرة ٢/٨٩.
(٢) الذخيرة ٢/٨٩.
(٣) سمع أزل: ذئب فاتك.
(٤) غيم أبل: غيم ممطر مطرا شديدا.
(٥) شل: يريد قلة.
(٦) صمل: شديد الخلق. تصل: تصيح بصوت لين رقيق.

ملكا عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمَّه الاستيلاء على طليطلة حتى يردَّ الدَّيْن الذى فى عنقه لبنى ذى النون! يقول ابن الخطيب: «وسُكْناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تملك النصارى لها[١]». ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادى الحجارة إلى طليرة وشنتمرية، وكان لذلك زلزلة ضخمة فى نفوس الأندلسيين، إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم، وانبرى شاعر كبير يحرض الأندلسيين على الأخذ بالثأر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة، بقصيدة تقطر غضبا وموجدة، وفيها يقول[٢]:

طُلَيْطِلَةُ أباحَ الكُفْرُ منها ... حِماها إنَّ ذا نَبَأً كَبِيرُ
ألم تَكُ مَعْقِلاً للدِّين صَعْبًا ... فذَلَّله - كما شاءَ - القديرُ
فعادتْ دارَ كُفْرٍ مصطفاةً ... قد اضْطَرَبَتْ بأهليها الأمورُ
مساجِدُها كنائسُ أىُّ قَلْبٍ ... على هذا يَقِرُّ ولا يطيرُ؟!
أُذِيلَتْ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ كانتْ ... مَصُوناتٍ مساكنُها القُصُورُ[٣]

والنزعة الدينية قوية فى القصيدة، إذ كانت حرب الشماليين فعلا حربا صليبية، والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف، ولا يهبُّ أبناؤه لحمايته واستعادته، حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أمراءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائرهم الدينية، فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضا للعِرْض الذى طالما سُلَّت السيوف من أجله وأذيقت الحتوف، فقد امتهنت النساء العفيفات ربات القصور الحسان ذوات الجمال، وتحوَّلن إلى خادمات فى بيوت العلوج، وإنه لحرى أن يَغْلى لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام، يقول:

خذوا ثأرَ الديانةِ وانْصُروها ... فقد حامَتْ على القَتْلَى النُّسُورُ
ولا تَهِنُوا وسُلُّوا كلَّ عَضْبٍ ... تَهابُ مضاربًا منه النُّحورُ[٤]
وموتوا كلُّكم فالموتُ أولَى ... بكم مِنْ أنْ تُجاروا أو تخوروا[٥]

---

(١) أعمال الأعلام ٢/٣٣٠.
(٢) نفح الطيب ٤/٤٨٣ وما بعدها.
(٣) أذيلت: امتهنت. قاصرات الطرف: عفيفات.
(٤) العضب: السيف القاطع.
(٥) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار: ضعف ووهن.

ونَـرجُوُ أن يُتِيـحَ الله نَصْرًا عليهـم إنَّـه نِعْـمَ النَّـصِيـرُ

وهو يقول للأندلسيين جميعا ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم ولا تهنوا بل جالدوا أعداءه مجالدة ضارية، حتى تذيقوهم ويال عدوانهم الأثيم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إجارتهم وحمايتهم لكم فإن فى ذلك هوانًا لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسى أن ينازلهم حتى الدماء الأخير، عسى أن يُجْبرَ العظم الكسير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتا لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبى محمد عبد الله العسَّال، ومرَّ بنا آنفا شعره حين استولى العدو على بَرْبشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظنا أنه نظم فى نجدتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كى ينقذوها من أيدى القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استولى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة فى أقصى الشمال لأمرائها من بنى هود لاستبسالهم المستمر فى حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زيَّن له الملتفُّون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدى بنى هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أزفت الآزفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كُتَنْده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى تُطيلة وطرَسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفى سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلدانها، وسيطر من بينهم ابن همشك على جَيَّان واتخذ وزيرا له أبا جعفر الوقَّشى أحد رجالات الأندلس النابهين وكان شاعرا، وما زال يقنع ابن همشك بالدخول فى طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بن عبد المؤمن فى عاصمته مراكش ليعلن إليه دخوله فى طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه فى إحداها[1] يستصرخه لجهاد النصارى فى الأندلس ورد كيدهم فى نحورهم، وفيها يقول:

ألا لَيْتَ شِعْرى هل يُمَدُّ لىَ المَدَى فأُبْصِرَ شَمْلَ المشركين طَرِيدا[2]

---

(١) انظر القصيدة فى نفح الطيب ٤/٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) يمد لى المدى: تطول حياتى.

وهل - بعدُ - يُقْضَى فى النَّصارى بنُصْرَةٍ ... تغادرهم للمُرْهَفَاتِ حَصِيدا[١]
ويغزو أبو يعقوبَ فى «سَنْتَ ياقُبِ» ... يُعيد عَمِيدَ الكافرين عَميدا[٢]
ويُلْقِى على إفْرِنْجِهِمْ عِبْءَ كَلْكَلٍ ... فيتركهم فوقَ الصعيد هُجودا[٣]
يغادرهم جَرْحى وقَتْلى مبرَّحاً ... ركوعًا على وَجْه الفَلا وسُجودا

والوقَّشى يتمنى أن يُمَدَّ له فى عمره حتى يبصر جموع المشركين مهزومين مدحورين مطرودين إلى أقصى الشمال وقد حصدتهم سيوف المسلمين حصدا بقيادة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وهو يتعقبهم منزلا بهم الهلاك والدمار حتى «سنت ياقوب» فى جليقية بأقصى الغرب من مملكة قشتالة، وقد أصبح عميدهم أو ملكهم قتيلا إثر مواقع تمزَّقهم تمزيقا، حتى لُتْمَلأ الأرض بهم جرحى وقتلى كُبُّوا على جباههم، وكأنهم راكعون على وجه الفلوات ساجدون وهم مجرَّحون مصرَّعون. ويمضى قائلا:

ويفتكُ من أيدى الطُّغاةِ نواعمًا ... تبدَّلْنَ من نَظْمِ الحُجُولِ قيودا[٤]
وأقبلْنَ فى خُشْنِ المسُوحِ وطالما ... سَحَبْنَ من الوَشْىِ الرَّقيق بُرودا
وغبَّر منهنّ التـرابُ تَـرَائِبًـا ... وخدَّدَ منهنَّ الهجيرُ خُـدودا[٥]
فحقَّ لدمعى أن يَفيض لأَزْرَقٍ ... تملَّكها دُعْجَ المدامع سُودا[٦]
ويالهفَ نفسى من معاصم طَفْلَةٍ ... تجـاورُ بالقِـدِّ الأليم نُهـودا[٧]

والوقَّشى يستثير حمية يوسف بن عبد المؤمن بما حدث من هوان النساء المسلمين وفتياتهم الحسناوات إذ تبدَّلن من زينتهنَّ وحلىِّ خلاخيلهن أغلال القيود، بل يا للذل فقد ألبسوهن مسوح النصارى الصوفية الخشنة بعد أن عِشْنَ يلبَسْن الثياب الحريرية الموشَّاة الرقيقة، بل يا للهول لقد صِرْنَ خادماتٍ يلَطِّخ التراب مواضع القلائد النفيسة فى صدورهنَّ، وقد غاضت من خدودهن النضرة من العمل الشاق فى لفح الهاجرة بعد أن كن

---

(١) المرهفات: السيوف حصيدا: محصودين كالزرع المحصود.
(٢) يريد بعميد الأولى سيد النصارى وملكهم، ويعميد الثانية قتيلا وأصل معناها القتيل بالعمود.
(٣) كلكل: وقعة مبيرة. الصعيد: وجه الأرض. هجودا: موتى كأنهم نائمون
(٤) الحجول: الخلاخيل.
(٥) غبر: لطخ بالغبار. الترائب جمع تريبة: موضع القلادة فى أعلى الصدر. خدد: أنحل. الهجير: اشتداد الحر.
(٦) يريد بالأزرق الإسبانى لزرقة عينيه. دعج جمع أدعج: شديد السواد.
(٧) معاصم جمع معصم: موضع السوار فى يد المرأة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة الناعمة. القِد: سير من جلد.

ربّات بيوت وفتيات قصور مخدومات تحفّ بهن الفخامة والجلال. ويقول الوقّشى حقّ لدمعى أن يسيل مدرارا لأولئك الحسان ذوات العيون النجلاء الدُّعج اللائى نشأن فى الحلية والنعيم، فقد بُدِّلت الأساور والحلىّ الذهبية فى معاصمهن أَقُدًّا أو سيورا من جلد، فياللعار! ويا للإسلام! ويا للعروبة

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين الأثر العميق فى نفسه، فدخل الأندلس فى سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف فارس شاكى السلاح، وسحق النصارى فى غير موقعة واستردَّ كثيرا من ديار الأندلس والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلَفه ابنه يعقوب المنصور فمزَّق جموعهم فى موقعة الأَرَك المشهورة سنة ٥٩١ غير أن النصر كُتب لهم فى موقعة العِقاب سنة ٦٠٩ لعهد ابنه الناصر. وثارت الأندلس على الموحدين، وتفككتْ بلدانها وتحارب أمراؤها، مما آذن سريعا بضياع الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى القشتاليون على مدينة ماردة فى الغرب شرقى بطليوس، وفى السنة التالية يستولى صاحب بَرْشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حَبَّات العقد ودرره أن تنفرط واحدة فى إثر أخرى، وتسقط فى سنة ٦٣٣ قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى فى حجر القشتاليين، وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها وذوى البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماستهم من العلماء أمثال القاضى أبى الربيع الكلاعى الذى استشهد وهو ينازل العدو منازلة ضارية. ولم يلبث ملك أراجون أن حاصر بلنسية أشهرا متعاقبة، وشدَّد الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤن، ولم يبق إلا الموت جوعا أو التسليم. ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبى الحملات يستصرخ حكام المغرب لإغاثته ونجدة بلدته مرسلا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن استغاث به أبو زكريا يحيى بن أبى حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفدًا على رأسه كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسنترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التى أنشدها بين يديه مستنفرًا له قبل سقوط بلنسية فى يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة فجهَّز أسطولاً من ثمانى عشرة سفينة محمَّلة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول - مع ابن الأبار والوفد المرافق له - إلى بلنسية. غير أن الأسطول أخفق فى إيصال المؤن إلى المحاصَرين، واضطر إلى إنزالها فى ثغر دانية جنوبى بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهرا طوالا حتى نفدت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم فى صدر سنة ٦٣٦ وكان

ذلك رُزْءًا أليما وخطبا جسيما، مما جعل كثيرين من شرقى الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمرائهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها، من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقرى لشاعر وجَّه بها إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس، يقول فيها[١]:

نادتْك أَنْدَلُسٌ فلبِّ نِداءَها ... واجْعَلْ طواغيتَ الصَّليبِ فداءَها
رِشْ أيُّها المولى الرَّحيم جَناحَها ... واعْقِدْ بأَرْشِيَةِ النجاة رِشاءَها[٢]
إيهٍ بَلَنْسِيةٌ وفى ذِكْراك ما ... يُمْرِى الشئونَ دماءَها لا ماءَها[٣]
بأبى مآذِنُ كالطُّلولِ دَوَارِسٌ ... نسختْ نواقيسُ الصَّليب نِداءها
هُبُّوا لها يا مَعْشَرَ التَّوحِيدِ قد ... آنَ الهُبُوبُ وأَحْرِزوا عَلْيَاءَها

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطغاة، ويتوسل الشاعر إلى أبى زكريا أن يريش جناح الأندلس المهيض ويعقد حبلها وخيوطها بحبال النجاة وما يرسل إليها من الجيوش الجرارة. ويبكى بلنسية وما دهاها، مما يُفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدارسة بروحه، ويتحسر على ندائها: «الله أكبر» الذى نسخته نواقيس الصلبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط فى أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شُقْر جنوبىّ بَلَنْسِيَة: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة فى الأندلس، ويلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياعا شديدا آملا فى استردادها من حملة الصَّليب بمثل قوله:[٤]

قد عاد قَلْبى من شَرْقِ أَنْدلسٍ ... عيدُ أسىً فَتَّه وما فتَّرْ[٥]
ودون شُقْرٍ ودون زُرْقتِهِ ... أزرقُ يَحْكى قَناهُ أوْ أَشْقَرْ
الرُّومُ حربٌ لنا وهُمْ وَشَلٌ ... سَالمه الواردونَ فاسْتَبْحَرْ[٦]
إنا لنرجو للدَّهر فَيْأَةَ مَنْ ... أنابَ مما جَناهُ واسْتغفرْ[٧]
ونرقُب الكرَّةَ التى أبدًا ... بها على الروم لم نزلْ نُخْبَرْ

(١) نفح الطيب ٤/٤٧٩.
(٢) رش من راش: أنبت الريش. أرشية جمع رشاء: الحبل.
(٣) يمرى من أمرى الناقة: أدرَّ لبنها.
(٤) انظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى للدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) ص ٢٣٢.
(٥) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من الهموم. فتر: سكن
(٦) وشل: قليلون. استبحر: كثر واتسع.
(٧) فيأة: رجعة.

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلأ قلبه مما حدث له ولموطنه «شقر» أَسًى وَغَمًّا فتّته تفتيتا، ولم - ولن - يفتر أو يسكن، وأين شُقْرُ؟ وأين نهرها بزرقته وحلله السندسية؟ لقد استولى عليه شُقْر من الروم زرق العيون مثل زرقة قناته، ويقول: يا للعجب ! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالمهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر مما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالبا الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرَّة على الروم والنصر الذى وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيَّان شرقى قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقى دانية سنة ٦٤٤. وإشبيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرُّندى فى نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

ابن[1] الأبَّار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى، كان أبوه من جِلَّة القرَّاء، من أهل حصن أُنده من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطنا له ومستقرا، وبها رُزق بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكبَّ على دراسة الحديث ورجاله والفقه والتاريخ، وأخذ يلتهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيها لعصره أبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى، وكان ابن الأبار يعجب به إعجابا يملأ عليه نفسه، وهو الذى وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذه الكلاعى صفيًّا له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمح إلى العمل السياسى فى دواوين الحكام، ولم يلبث والى الموحدين على

---

(١) انظر فى ابن الأبار عنوان الدراية للغبرينى ص ١٨٣ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ١٩١ والمغرب ٣٠٩/٢ وتاريخ ابن خلدون ٢٨٣/٦ وفوات الوفيات لابن شاكر ٤٥٠/٢ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ٩ وأزهار الرياض للمقرى ٢٠٥/٣ وما بعدها ونفح الطيب ٤٥٧/٤ وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٢٩٥/٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاى الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه «الحلة السيراء» وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقين والمعاصرين.

مدينته محمد بن أبى حفص أن اتخذه كاتبا له، وكتب بعده لابنه أبى زيد عبدالرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبوجميل زيّان بن مرْدنيشْ صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتبا له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعى ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندبا حارا. ومايلبث صاحب برشلونه أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبى زكريا يحيى بن أبى حفص أمير تونس على رأس وفد لطلب الغوث والمعونة، فجهَّز له أسطولا محمَّلا بالمؤن والأسلحة كما مرَّ بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلَّم أهلها ما حمله كما مرَّ بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية فى صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودائما كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسى لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأنما زهد ابن الأبار فى المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألحقه أميرها أبوزكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أوشارة الدولة، وهى توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسى، فرأى الأمير أبوزكريا أن تكتب بالخط المشرقى وأن يختص بكتابتها أحمد بن ابراهيم الغسانى، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسى، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعاده إلى الكتابة فى ديوانه ورفعه إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفِّر الناس منه، ويقول ابن خلدون: «كان فيه أنفة وَبَأْوٌ (عظمة) وضيق خلق» فأوجد له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقنعوا المستنصر باشتراكه فى مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قُتل سنة ٦٥٨ مظلوما مأسوفا عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار فى الذروة من مؤرخى الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو فى مقدمة من مكّنوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس وأعلامها النابهين بفضل كتبه النفيسة، وهى: التكملة فى مجلدين - المعجم فى أصحاب القاضى الصدفى المتوفى سنة ٥١٤ هـ - الحلة السيراء فى مجلدين وتشتمل

على تراجم الأمراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفة القادم فى شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكانتهم وحظوتهم عند الحكّام ثم استعادوها، وبهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرا مجيدًا، وحين حدثت وقعة أنيشة أظلمت الدنيا فى عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجلة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعى، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدما أمام الصفوف زاحفا إلى الأعداء مرغبا فى قتالهم مناديا فيمن ينهزمون: أعن الجنة تفرُّون؟ وظل يُعْمل السيف فى الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعانها البواسل، وندبهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشعل الحمية فى قلب كل مسلم، وفيها يقول:

أَلِمَّا بأشْلاءِ العُلا والمكارمِ ... تُقَدّ بأطراف القَنَا والصَّوَارمِ[1]
مَضَوْا فى سَبِيلِ الله قُدْما كأنما ... يَطِيرون من أقْدامهم بِقَوَادِمِ[2]
مواقفُ أبرارٍ قَضَوْا من جهادهمْ ... حقوقًا عليهم كالفُروض اللَّوَازِمِ
أَبِيتُ لها تحتَ الظلامِ كأننى ... رَمِيٌّ نِصالٍ أو لدِيغٌ أراقمِ[3]
فوا أسَفِى للدِّين أعْضلَ داؤهُ ... وأيْأسَ من آسٍ لِمَسْراهُ حاسمِ[4]

وهو يهيب بكل مسلم أن يلمَّ بتلك الأشلاء الطاهرة التى قطّعتها ومزقتها رماح النصارى وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد فى سبيل الله مسرعين، كأنهم طير وأقدامهم قوادمه، حتى يؤدوا حقوق دينهم أداءَ المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة وشهدائها لتحز فى نفسه، بل لكأنما رمى منها بنصال تنزف الدم من فؤاده، أو كأنه لديغ حيات ما تزال سمومها تسرى فى شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف فى الأندلس فكأنما أنزل النصارى به داء عُضالا، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا آنفا أنه حين قدم مع وفد بلنسية على أبى زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها لإنقاذ بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محظىّ ومحروم، ووَلِعَ الناس

---

(١) تقد: تشقق. القنا: الرماح. الصوارم: السيوف.

(٢) قدما: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة فى مقدم الجناح.

(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأراقم: الحيات.

(٤) أعضل الداء: لم يمكن البرء منه. آس: طبيب.

بحفظها وَلَعَ بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، ويقول المقرى فى أزهار الرياض إنها من «غرر القصائد الطنانة» ويقول فى النفح: إنها «قصيدة فريدة فضحت من باراها، وكبا[١] دونها من جاراها» وفيها يستغيث:

أدرِكْ بخَيْلِك خيلَ الله أَنْدَلُسَا ... إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا[٢]
يا للجزيرةِ أضحى أهلُها جَزَرًا ... للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسَا[٣]
وفي بَلَنْسيـةٍ منهـا وقُـرْطُبَـةٍ ... ما يَنْسِفُ النَّفْسَ أو ما يَنْزِفُ النَّفَسَا
يا لَلْمساجِـدِ عادتْ للعِـدَا بِيَعًا ... وللنِّداء غدا أثناءها جَـرَسا[٤]
طَهِّرْ بِلادَكَ منهمْ إنهم نَجَسٌ ... ولا طهارةَ ما لم تَغْسِلِ النَّجَسَا
واملأْ- هنيئًا لك التأييدُ- ساحتَها ... جُرْدًا سَلاهِبَ أو خَطِّيَّةً دُعُسَا[٥]

وهو يقول لأبى زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تعس حَظُّها وأصبح أهلها جزرًا لسيوف النصارى. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبلنسية لما يروع النفوس ويخنق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كنائس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراسا لنواقيس النصارى، ويقول له إنهم نجاسة ينبغى أن تطهر بلادك منهم بما تسفك من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تغسل النجاسة وتَمْحُها محوا، واملأ الأرض وساحاتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبه. حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالمؤن والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البلنسى المرافق له لإغاثة بلنسية المحاصرة، غير أن النصارى كانوا قد ضربوا حولها حصارا لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت فى أيديهم المدينة.

أبو[٦] البقاء الرُّندىّ

هو صالح بن أبى الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبى البقاء

---

(١) كبا: تعثر.
(٢) درس: أخلق وتقادم عهده.
(٣) جزرا: قطعا وذبائح. جدها: حظها.
(٤) بيع: كنائس. النداء هنا: الأذان. جرسا أى للنواقيس.
(٥) جردا: خيلا سابقة. سلاهب: عادية. خطية: رماحا. دعسا: طاعنة.
(٦) انظر فى ترجمة أبى البقاء وشعره بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص١٣٦ ومابعدها والإحاطة لابن الخطيب ٣/٣٦٠ ونفح الطيب للمقرى ٤/٤٨٦ ومابعدها وأزهار الرياض ١/٤٧ ومابعدها ومجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ٦/٢١١ وكتاب تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص٤٣٣-٤٦٠.

وكنية أخرى بأبى الطيب، ومسقط رأسه رُنْده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينابيع وتحفّها وديان، مما جعلها - كما فى المغرب - تُعمَّم بالسحاب وتوشّح بالأنهار العذاب، وقد رُزق أبوه به سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشى بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلى الذى ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطنَ الدبَّاج أبا القاسم بن الجد نزيل تونس. ولم يتتلمذ لهذين العالمين فقط بل تتلمذ أيضا لابن الفخار الشريشى ولابن زرقون الغرناطى. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على نهم فى طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك فى جانبين عنده هما التأليف ونظم الشعر، أما التأليف فله فيه كتاب: «روضة الأنس ونزهة النفس» ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا فى الفصل الثانى أن له أيضا كتاب الوافى فى نظم القوافى، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها فى محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها فى الإخلال والسرقة والضرورة، ورابعها فى حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهى صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب فى علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشى - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية «فقيها فرضيا حافظا» أى محدثا ويقول إنه كان متفننا فى معارف جليلة.

ويقول المراكشى إنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره» وإنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألّفه، ويذكر أن له فى النثر مقامات بديعة فى أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظما ونثرا مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفا فى زمنه. وقد طارت شهرة أبى البقاء الرندى شرقا وغربا لقصيدته النونية التى نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى فى يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما فى حيِّز كل منها من مدن ومعاقل وحصون مما تنخلع له القلوب والأفئدة أسى وحزنا لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضا مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى فى أيد لا ترحم، أيد استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالا من العذاب لا تطاق. وكأنما ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصرة إخوانهم فى الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التى دالت، وكأنما يتأثر فى هذا الجزء من قصيدته بابن

عبدون آملا أن تدول دولة النصارى الشماليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التى نزلت بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، ويهتف:

دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ له ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانهدَّ ثَهْلانُ[1]
فاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً ما شَأْنُ مُرْسِيةٍ ... وأيْنَ شاطبةٌ أم أينَ جَيَّانُ
وأينَ قُرْطُبَةٌ دارُ العلومِ فكم ... من عالمٍ قد سَمَا فيها لَهُ شانُ
وأينَ حِمْصٌ وما تَحْوِيهِ من نُزَهٍ ... ونَهْرُها العَذْبُ فيَّاضٌ وملآنُ[2]
قواعدٌ كنَّ أَرْكانَ البلادِ فما ... عَسَى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أَرْكانُ
إن المساجدَ قد صَارَتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلْبان

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من الخطوب أمر يجلّ عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى لها الجبال وتنهدّ فى كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمَّتها ضاعت وضاعت معها قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال فى أيدى المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكتظ بالنواقيس والصلبان، ويصرخ مستنفرا:

يا راكبين عِتاقَ الخيلِ ضامِرَةً ... كأنها فى مجال السَّبْق عِقْبانُ
وحاملين سيوفَ الهند مُرْهفَةً ... كأنها فى ظلام النَّقْع نِيرانُ[3]
وراتعين وراءَ البحر فى دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسُلْطانُ
أعندكم نبأٌ من أَهْل أندلسٍ ... فقد سَرَى بحديث القوم رُكْبَانُ
ماذا التقاطُعُ فى الإسلام بينكمُ ... وأنتمُ يا عبادَ الله إخْوانُ

وهو يصيح فى فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرهفة أن يسارعوا لنجدة الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين فى ديارهم يعيشون فى دعة وعزة وقوة، كأن ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيبهم وحدهم بل تصيب أيضا الحنيفية البيضاء فى الصميم، فما هذا التقاطع والتنابذ وأنتم إخوان فى الدين أخوَّة أقوى من أخوة ذوى الرحم، إذ ليست أخوَّة دم بل أخوة روح وقلب وفكر وفؤاد، ويصيح جزعا:

---

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. ثهلان: جبل بنجد.
(٢) حمص: إشبيلية.
(٣) النقع: غبار الحرب.

يـا مَنْ لذلّـةِ قومٍ بَعْـد عِـزِّهِمُ أحـال حـالَهمُ كُفْـرٌ وطُغْيـانُ
بالأمس كانوا مُلوكًا فى منازلهم واليومَ هُمْ فى بلاد الكفر عُبْدَانُ
ولـو رأيتَ بُكـاهم عنـد بَيْعهمُ لهـالك الأمرُ واسْتَهْوَتْـك أَحْـزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وطِفْلٍ حِيـلَ بينهما كـمـا تـفـرَّقُ أرواحٌ وأبْـدانُ
وَطفْلةٍ مثل حُسْن الشمس إذ طلعتْ كـأنّمـا هىَ يـاقـوتٌ ومَـرْجـانُ
يَقُـودُها العِلْجُ للمكـروه مُكْـرَهـةً والعين بـاكيـةٌ والقلبُ حَـزْنـانُ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استذلهم الكفر والطغيان بعد أن كانوا فى الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكا وأمراء، فأصبحوا عبيدا، وإنهم ليبكون بكاء مرا، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شىء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد. وياللهول فكم من طفل فرّقوا بينه وبين أمه كما يفرّق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وفلذة كبدها أبدا، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كأنما هى ياقوت ومرجان يرغمها إسبانى جاف غليظ على المكروه البغيض، وهى محزونة تذرف الدمع مدرارا.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التى سقطت فى أيدى النصارى الشماليين بعد وفاة أبى البقاء الرندى سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبه لذلك المقرى فى نفح الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدى الناس منها زيادات نُدبت فيها مدن الأندلس التى ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائيا فى تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة فى سمائها ثمانية قرون طوال.